مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

أ.د. مصطفى الشكعة



الرافعي وإعجاز القرآن الكريم





إهـــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية

الرافعى

وإعجاز القرآن الكريم

أ.د. مصطفى الشكعة



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٤

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

بالتعاون مع
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(سلسلة الأعمال الدينية)
إشراف : عادل النحاس

الرافعى وإعجاز القران الكريم
أ.د. مصطفى الشكعة

الغلاف والإشراف الفنى :
للفنان : محمود الهندى
للفنان : محمد كامل

الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

السيدة التى جعلت من الكتاب وطنًا !

د. سمير سرحان

مرت عشر سنوات منذ إنشاء «**مكتبة الأسرة**» وأذكر أنه كان يومًا مشهودًا، حين جلسنا مع عدد من المثقفين والوزراء والمفكرين حول تلك السيدة العظيمة التى كانت عيناها تشخص إلى السماء حيث أحلام كثيرة تدور بذهنها الذى لا يتوقف عن التفكير أبدًا.

كانت منذ سنوات قد أنهت رسالتها من الماجستير، التى كان من نتائجها ضرورة إصلاح أحوال المدارس الابتدائية، ورفع مستواها العلمى والتعليمى، وحتى مستوى الأبنية والخدمات.. فكان الأساس فى ذهنها، كما أدركت بعد ذلك معظم الدول الكبرى أن العملية التعليمية هى أهم ما يميز الأوطان، وأن الطفل الذى يمثل البذرة الأولى فى بناء مستقبل أى وطن هو البداية الحقيقية، كنا نتعجب جميعًا فى صمت ونحن جالسون حول تلك المائدة الصغيرة.. لماذا لم يفكر أحد من قبل فى الطفل، ولا أعنى صحته فقط، أو ما قد يصيبه من أمراض، أو مستوياته الاقتصادية

والاجتماعية.. لماذا لم يفكر أحد فى الطفل الإنسان؟! أى فى عقل الطفل ووجدانه، والانطباعات المختلفة، التى يكتسبها من عملية التعلم، وبخاصة من القراءة الحرة، وليس قراءة الكتب المدرسية فقط.

وكان الطفل المصرى فى ذلك الوقت معتادًا أن يمسك بالكتاب المدرسى ويصب عليه كل ما فى طاقته من كره وسخط، ويحفظه حفظًا آليًا بلا فهم، ويُفرِّغ هذا الفهم على الورق لينجح وينتقل من سنة دراسية إلى أخرى، أما فى آخر السنة فكانت العادة أن يرمى الكتاب المدرسى من النافذة، كأنه قد تخلص من عبء ثقيل.

كانت السيدة العظيمة، التى قُدِّر لها أن تعنى بمستقبل مصر، وأن تكرس حياتها لبناء هذا المستقبل، تفكر فى الطفل كإنسان، وكعقل، وكروح.. لقد اكتشفت أن كل ذلك لا يأتى إلا بالقراءة، والقراءة خارج المقرر الدراسى، كما لا يأتى أيضًا إلا من خلال كتاب يوضع فى يده ليحبه شكلاً ومضمونًا، ويحتضنه فى سريره وهو نائم، ويطلق من خلال المادة التى يقرؤها فيه، العنان لخياله، فيسافر من خلال هذا الكتاب إلى عالم سحرى من الأماكن والأفكار والمشاعر والرؤى.

لمعت العينان الذكيتان بعمق الفكرة، وأهميتها لوطن يبنى نفسه ويضع نفسه على مشارف القرن الحادى والعشرين، وبعد أربع سنوات من افتتاح المكتبات العامة فى الأحياء الفقيرة والمُعدَمة،

كانت الفكرة الرائدة قد اكتملت فى ذهنها فأصبحت سوزان مبارك صاحبة أعظم مشروع ثقافى فى القرن العشرين وأوائل الحادى والعشرين.. «**مكتبة الأسرة**».

وكانت فكرة مكتبة الأسرة بسيطة وعميقة فى نفس الوقت، وهى أن نقوم بغرس عادة القراءة فى نفوس ملايين أبناء الشعب الذين لم يكن الكتاب من قبل جزءًا من حياتهم.. وأعتقد أن هذا الهدف قد نجح تمامًا، فقد كان بعض من يسخرون من الشعب المصرى، محاولين الحط من قدره يصفونه بأنه شعب **الفول والطعميه**، وأعتقد أنه الآن وبعد عشر سنوات من صدور مكتبة الأسرة، أصبحوا يسمونه بلا تردد شعب الكتاب والقراءة والعلم والمعرفة.. لكن الهدف الأعمق والأسمى كان إعادة بعث التراث الأدبى والفكرى والعلمى والإبداعى الحديث لهذه الأمة، وهذا يؤكد بالفعل لا بالكلام ريادتها وقيادتها الثقافية والفكرية فى عالمنا العربى، كما يؤكد عظمة ما جاء به عصر التنوير المصرى لينقل العالم العربى كله من عصور الظلام المملوكية والاستعمارية إلى شعوب تعيش عصر العلم والتقدم، وتبنى شخصيتها الثقافية وحضورها الثقافى على مدى العالم..

وها قد أصبحت مكتبة الأسرة بعد عشر سنوات من الجهد المضنى والمتواصل تقدم أكثر من عشرة ملايين كتاب موجودة الآن فى كل بيت مصرى، تحمل صورة السيدة التى فكرت ونفذت هذه

الذخيرة من الفكر والإبداع التى تثرى عقل ووجدان كل مواطن طفلاً كان أم شابًا، ليس فى مصر فقط، وإنما فى العالم العربى كله.. وأصبحت المادة التى تضمها هذه الكتب هى أساس راسخ لتكوين مواطن المستقبل، وأصبحت معظم الدول العربية والمؤسسات الدولية تطلب تطبيق التجربة المصرية على أرضها.

هل كان مجرد حلم لسيدة عظيمة شخصت بنظرها إلى السماء باحثة عن المستحيل، أم كان مجرد حلم رائع، هائل القيمة والحجم وتحقق.. تحية لهذه السيدة العظيمة «**سوزان مبارك**»، واحترامًا وحبًا بلا حدود على قدرتها لتخيل المستقبل، وبناء إنسان جديد لوطن جديد.

وستظل صورة السيدة **سوزان مبارك** موجودة على كل كتاب، وفى كل بيت تُذكّر كل مصرى أن الحلم الحقيقى ليس بالمال، وليس بالتهافت على الماديات، إنما هو «**المعرفة**» وبدون معرفة فى هذا العصر لا يوجد وطن، وإذا فقد الإنسان الوطن فقد ذاته.. بل فقد كل شىء يربطه بهذه الحياة.

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبى بعده، سيدنا وإمامنا ومعلمنا محمد بن عبدالله الذى اختاره الله ليكون خير خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله، ومتلقى وحيه، ومبلّغ رسالته ممثلة فى كتابه الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨) وصلاة وسلامًا على أهله الطاهرين، وصحبه الطيبين وكل من اتبع سنته ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد..

فإن هذا الكتاب الذى بين أيدينا «إعجاز القرآن». لمؤلفه الكاتب العالم الأديب المسلم مصطفى صادق الرافعى ـ رافع لواء العربية، وقائد

كتيبة الدفاع عن المسيرة الإيمانية ـ قد توفر على كتابه هذا المؤلف النفيس فى السنوات الأولى من العقد الرابع من القرن الهجرى الرابع عشر المنصرم، وبذلك يكون قد مضى على تأليفه ما يقرب من قرن من الزمان.

وقد كان لظهور هذا الكتاب دوىٌّ كبير: صخب وضجيج عند المناوئين لمعالم الإيمان، وترحيب وارتياح من الحريصين على تفهم كتاب الله فى إطار من نهج الهدى، ونسق من روح الإيمان، مستشعرين روعة الإعجاز الإلهى من خلاله فى كتاب الله، متلهفين لتلقى ما يزيدهم عونًا على أداء رسالتهم السامية مبشرين ومنذرين.

لقد انتقل الرافعى إلى الرفيق الأعلى سنة سبع وثلاثين وتسع وألف ميلادية، وطبقًا لقوانين الطباعة والنشر فى بلادنا العربية فإن مؤلفات العلماء الذين يمضى على وفاتهم نصف قرن من الزمان تصير كلاً مستباحًا للناشرين ونهبًا مستساغًا للمزورين الجاهلين.

ومن منطلق الحرص على أن يظلّ كتاب «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» للرافعى سهل المنال للمؤمنين، فى الإطار الأمين الذى قدمه المؤلف من خلاله، فقد طلب إلىّ الأخوان العالمان الجليلان الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ونائبه المنضال الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق أن أقدم هذا الكتاب إلى القارئ المسلم محققًا فى إطار دراسة كاشفة، شاملة تعريفًا بالمؤلف وآثاره العلمية والأدبية تيسر على قارئه بعض ما قد يستغلق عليه من فهم أو يستعصى عليه من استيعاب، وكسب جيل من

شبابنا المتعطشين إلى قراءة ما يزيد إيمانهم تثبيتًا، وتعميق ما قد استقر فى قلوبهم من جذور اليقين، فأذعنت لهذا التكليف الكريم، وجمعت ما تيسر لى جمعه من طبعات الكتاب بدءًا من الطبعة الأولى وما تلاها من طبعات حتى الثامنة، وبذلت من الجهد فى هذا السبيل ما أعاننى الله عليه.

فحمدًا لله على ما يسّر ووفّق، وشكرًا للأخوين العالمين الجليلين على حسن الظن الذى أرجو أن أكون أهلاً له.

والله أسأل أن يتقبل أعمالنا جميعًا خالصة لوجهه الكريم، وعليه سبحانه وتعالى قصد السبيل.

أ.د. مصطفى الشكعة

مدخل إلى دراسة كتاب إعجاز القرآن

هذا الكتاب «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» واحد من أنفس ما قدم مصطفى صادق الرافعي للعربية، بل هو أنفس ما كتب عن إعجاز القرآن الكريم في العقود الأولى من القرن الهجري المنصرم كان خليقًا بأن يحتفى به، وأن تعاد طباعته بعد أن كاد ينسى، وبذلك يكون رائدًا لمحبي كتاب الله الكريم وتنبيهًا لنفوس كثيرة عراها الصدأ، وران عليها الكسل، وهو في الوقت نفسه يُعد مجددًا لنشاط النفس المؤمنة، منعشاً للقلوب المسلمة، ثم هو إلى ذلك نفحة إيمانية، وهبةٌ ربانية، تمثل طرازًا من نماذج متعددة تصدر عن أقلام طاب ثمرها على اختلاف اتجاهاتها، وتباين مذاهبها.

آل الرافعي:

وأما مؤلف الكتاب فهو مصطفى صادق الرافعي ابن الشيخ عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، أحد أبناء الأسرة

الرافعية الكريمة التى تقاسمت الإقامة بين طرابلس الشام وبين مصر، شأنها فى ذلك شأن كثير من الأسر العربية التى كانت تتفرق فى أقطار الأمة الواحدة، حيث يعيش فرع منها فى مصر وآخر فى العراق، وثالث فى المغرب وهكذا، حين لم تكن ثمة حدود تفصل بين قطر وقطر، ولا قيود تمنع العربى من الانسياح فى الأرض، ولا سدود تسد طريق المواطن ارتياد مرابع قومه ومساكن أهله.

والمشهور أن أول رافعى وفد إلى مصر من لبنان هو الشيخ محمد طاهر الرافعى، وكان ذلك سنة ١٢٤٣ هـ ـ ١٨٢٧م، ثم تبعه بعد ذلك آخرون من أسرته، وكانوا جميعًا معروفين بالأدب والدين، وتنشئة صغارهم على الثقافة وحب التعلم، ومن ثم كان عدد غير قليل من «الرافعيين» المصريين يلُون أمر القضاء الشرعى، مما أدخل الفزع فى قلب عميد الاستعمار البريطانى فى مصر وهو المعروف باللورد كرومر.

ومن هؤلاء كان الشيخ عبد الرزاق الرافعى بن سعيد والد الأديب الكبير «مصطفى».

ومنهم عمه الشيخ عبد اللطيف الرافعى الذى ولى الافتاء فى الإسكندرية، وهو والد كل منْ علم السياسة والصحافة أمين الرافعى، والمؤرخ القانونى الوطنى عبد الرحمن الرافعى. وبالمثل كان عدد من الرافعيين الطرابلسيين يتولون الإفتاء والقضاء فى طرابلس، منهم رأس الأسرة الشيخ عبدالقادر الرافعى والشيخ عبد الغنى الرافعى، وولده الشاعر المبدع عبد الرحمن بن عبد الغنى الرافعى، ومنهم عبد الحميد الرافعى الشاعر الذى كان يلقب ببلبل سورية، وكان قد وفد إلى مصر

والتحق بالأزهر ثم أكمل تعليمه فى كلية الحقوق بالآستانة، وله عدة دواوين من الشعر الرصين منها: الأفلاذ الزبرجدية فى مدح العترة النبوية، والمنهل الأصفى فى خواطر المنفى، وتوفى سنة ١٩٣٢م، وهى السنة نفسها التى توفى فيها أمير الشعراء أحمد شوقى، وقد امتدحه شوقى والأسرة الرافعية فى حفل أقيم لتكريمه بقصيدة عينية من عيون شعر شوقى منها قوله:

أعرنى النجم أو هب لى يراعا — يزيد الرافعين ارتفاعا
تأمل شمسهم وهدى ضحاهم — تجد فى كل ناحية شعاعا

وليست الأسرة الرافعية بوفرة علمائها وكثرة أدبائها ظاهرة فريدة فى المسيرة العلمية الإسلامية، والانطلاقة البيانية العربية، لأن هذه الظاهرة تطرز وجه البيان العربى من قديم، منها أسرة البرامكة: خالد ويحيى والفضل وجعفر، ومنها الصوليون الذين من أشهرهم عمرو بن مسعدة وإبراهيم ابن العباس الشاعر الكاتب، وأبو بكر صاحب الأوراق، المعروف بالشطرنجى، ومنهم بنو وهب الذين وُلِىَ منهم الكتابة والوزارة خمسة أجيال، ومنهم بنو ثوابة - عدة أجيال، ومنهم بنو الصابى الذين منهم أبو إسحاق إبراهيم بن هلال، وهلال بن المحسن، وعبدالله صاحب «نشوار المحاضرة»، وأبو الخطاب وهارون بن صاعد، ومنهم بنو مقلة الوزراء الكتّاب الخطاطون، ومنهم بنو المدبر إبراهيم صاحب الرسالة العذراء وأحمد ومحمد ومنهم فى العصر المملوكى بنو القلقشندى من قرية قلقشندة الذين ملأوا ربوع مصر وبيت المقدس

وسورية أدبًا وعلمًا، والذين من أشهرهم أبو العباس صاحب الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى بابه وموسوعيته «صبح الأعشى فى كتابةالإنشا». ومن هذه الأسر المصرية المنجبة للعلماء أيضًا أسرة «السبكى» نسبة إلى قرية سبك الضحاك» بمحافظة المنوفية الذين ملأوا مصر علمًا، وزرعوا الشام فضلاً وأدبًا وأشهرهم تاج الدين عبد الوهاب بن على، صاحب كتاب «طبقات الشافعية» فى سبعة مجلدات جليلة نفيسة، وأكبرهم تقى الدين شيخ الإسلام فى عصره، ومنهم بهاء الدين أحمد بن على، ومن الطريف أن كل واحد منهم ولى قضاء دمشق.

إن مصطفى صادق الرافعى سليل واحدة من تلك الأسر، أو قل من تلك البيوتات التى عشقت العلم، وأورثت أبناءها ما أفاء الله عليهم من نعمة المعرفة، فسما قدرهم، وارتفعت أقدارهم. وشجعوا الخلق على طلب العلم، استجابة لروح القرآن، وإحياء لسنة صاحب القول الشريف ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

لقد ولد مصطفى سنة ١٨٨٠م، فى قرية من ريف مصر هى بلدة «بهتيم» بمحافظة القليوبية غير بعيد عن العاصمة، وأخذ ينتقل مع أبيه من بلد إلى أخرى حتى انتهى المقام بالأسرة فى مدينة طنطا وفيها أخذ مصطفى يطلب العلم، ويتنفس المعرفة، ويغترف من ينابيعها ما استطاع إلى ذلك من سبيل، ولما عجزت موارده المالية عن أن تمده بما ييسر له الالتحاق بالجامعة المصرية، فإن ذلك لم يفت فى عضده، فالتحق بوظيفة كتابية بمحكمة طنطا، وجعل قسمًا من وقته لعمله وبقيته للقراءة فى تراث العربية والكتابة فى كبريات المجلات الأدبية، وتأليف الكتب التى بذل فيها من الجهد ما جعلها خليقة بالاحترام، جديرة بتقدير العلماء.

أعلام المرحلة وروادها:

ولأن الرافعى من مواليد العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر مثله فى ذلك مثل بقية الرواد النابهين من مفكرى القرن العشرين وشعرائه وكتابه، فقد انتظم عقدهم، وتقدم صفوفهم بإنتاجه الوفير فى فروع الآداب والعلوم الإسلامية.

والحق أن هذه الكوكبة من علماء العربية وأدبائها الذين ولدوا فى أواخر القرن التاسع عشر وعاشوا نصف القرن العشرين، وتجاوز عدد كبير منهم ذلك النصف الأول إلى النصف الثانى منه تمثل ظاهرة لم تتكرر كثيرًا فى مسيرة الفكر العربى. فقد عاش فى تلك الفترة أحمد لطفى السيد وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الرازق السنهورى وطه حسين وعباس العقاد وعبد الوهاب عزام وأمين الخولى ومنصور فهمى وعلى الجارم ومحمد حسين هيكل ومحمد فريد أبو حديد وأحمد حسن الزيات ومحمد فريد وجدى وتوفيق الحكيم ومحمد تيمور ومحمود تيمور وعبد الرحمن شكرى وإبرهيم سلامة ومحمد عوض محمد ومحمد كامل حسين (الطبيب) ومحمد كامل حسين (أستاذ الآداب) وعبد اللطيف حمزة ومحمد مندور وزكى مبارك ومحمد مظهر سعيد وعلى أدهم. ومن أدباء علماء الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ محمد زكى إبراهيم رائد العشيرة المحمدية والشيخ محمد عرفة والشيخ محمد الغمراوى والشيخ محمد الخضرى.

ومن مفكرى العالم العربى وأدبائه: شكيب أرسلان، والشيخ محمد رشيد رضا والشيخ نديم الجسر وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران

وهؤلاء جميعًا من لبنان، وأما سوريا فمنها الشيخ على الطنطاوى والشيخ عبد القادر المغربى، ومن فلسطين محمد محمد إسعاف النشاشيبى، ومن العراق الشيخ محمد رضا الشبيبى والشيخ محمد بهجة الأثرى والشيخ بحر العلوم، ومن الشمال الأفريقى الشيخ الطاهر بن عاشور والشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمى والسيد علال الفاسى وآخرون كثيرون.

وأما شعراء تلك الفترة الزمنية الرائدة فى مصر فيجىء على رأسهم أمير الشعراء أحمد شوقى وإسماعيل صبرى، وحافظ إبراهيم، وعباس محمود العقاد، وأحمد محرم، وعلى الجارم، وحفنى ناصف، ومحمد عبد الغنى حسن، ومحمد الهراوى، وأحمد مخيمر، وأحمد زكى أبو شادى وفخرى أبو السعود ومحمود أبو الوفا وعلى محمود طه وإبراهيم ناجى،وآخرون(*)، ومن شعراء العراق محمد جواد الشبيبى والكاظمى وجميل صدقى الزهاوى ومعروف الرصافى وأحمد الصافى النجفى، ومن سورية بدوى الجبل والدكتور الجابرى والدكتور محمد زكى المحاسنى وأنور العطار وعمر أبو ريشه، ومن لبنان بشارة الخورى ونقولا فياض وميخائيل نعيمة، ومن الحجاز فؤاد شاكر وأحمد إبراهيم الغزاوى وعبدالله بلخير، ومن السودان محمد العباسى والتجانى بشير، ومن تونس أبو القاسم الشابى ومن فلسطين إبراهيم طوقان وفؤاد الخطيب ومحيى الدين الحاج عيسى الصفدى. ومن المهجر جبران خليل جبران وإلياس أبو شيكة، ورشيد الخورى الملقب بالشاعر القروى.

(*) المحق.

كانت هذه الكوكبة العظيمة من الأعلام متعددة المواهب، متباينة المذاهب، وافرة العطاء، خصيبة الإبداع، فيهم المفكر والكاتب والشاعر والقاص والعاشق، وكان مصطفى صادق الرافعى يشاركهم جميعًا فى ملكاتهم وينازعهم فى مواهبهم، فهو فى مقدمة المفكرين وإمام المنشئين وعلى رأسهم الكاتبين وحجة المؤلفين ومزاحم للشعراء ومشارك للقصاص ومنتظم سلك العاشقين.

وفى كلمات موجزة قصار كان مصطفى صادق الرافعى مفكرًا عميقًا، وكاتبًا بليغًا فريدًا، وشاعرًا موهوبًا، وعالمًا منتجا لروائع التأليف، وعاشقًا عفًا - فى موكب عشاق الأديبة مى زيادة - ثم هو بعد ذلك مصلح كبير، ومناضل باسل، إذا خاض معركة فكرية أو أدبية أو تاريخية أو أخلاقية أو إسلامية كان الصواب رائده، والنصر حليفه، والغلبة معقودة على ناصيته، وهو ما سوف نعرض له فيما يلى من صفحات..

التيارات المتباينة والمذاهب المتصادمة:

تلك كانت أبرز الشخصيات التى عاصرها الرافعى و «وعَصَرَ» بعضها، وكانت تمثل تيارات مختلفة، واتجاهات متباينة بل متصادمة، ومذاهب متباعدة بل متضادة، ولم يكن ذلك غريبًاوإن بدا كذلك، لأن تلك الفترة الزمنية كانت الثقافة الوافدة لم تطرق الأبواب فى لين ويسر، وإنما جاءت مقتحمة متحفزة مهاجمة، وكان الموقف أكثر شدة لدى أصحاب الثقافة المحلية، فكانت المحافل الثقافية فى العالم العربى بعامة وفى مصر بخاصة أشبه ما تكون ببرج بابل، مع فارق واحد هو أن برج بابل الحقيقى لم يكن حافلاً بالصياح والصدام، وأما برج بابل المستحدث

فكان الصدام فيه على أشده والحرب فيه متعددة الأسلحة وإن كانت بغير دماء.

كانت الدعوة إلى الفرعونية وافرة النشاط، والتحريف والإلحاد يسفر عن وجهه فى جرأة وعدم استحياء، وكان التشكيك فى عروبة مصر يجد من يتخذه عقيدة ومذهبًا، وكانت الدعوة إلى العامية والتحامل على الفصحى صادرة عن أسماء كبيرة، بل كانت الدعوة إلى هجر الحروف العربية واستعمال الحروف اللاتينية بديلاً عنها وجدت من يدعو إليها داخل عرينها وهو مجمع اللغة العربية، وفى مواجهة هذه التيارات الغربية الجريئة المقتحمة الأبواب بلا استحياء، كان على أصحاب الدار أن يواجهوا هذه الهجمات الشرسة مسلحين بأصالة عقيدتهم، وسدادة لغتهم، وبسالة موقفهم، بحيث انتهت المعركة الطويلة بانتصار الأصالة، وظفر الأصلاء، وبقيت مصر وجيرانها على عقيدتهم سليمة صحيحة وعلى قوميتهم عربية خالصة، وعلى لغتهم فصيحة صافية مثمرة شامخة.

معارك الرافعى الفكرية والأدبية:

إن الرافعى واحد من ألمع الأدباء المعاصرين، وإذا ما صنفوا طبقات ورتبًا كان من الطبقة الأولى والرتبة العليا بينهم، ولم يكن عدوانيًا بطبعه، ولا متجاوزًا حدود المألوف بقلمه، إلا فى حالتين اثنتين: إذا ما اعتدى صاحب قلم على الإسلام عقيدة ورسالة وقرآناً، أو إذا تعرض كاتب للغة الفصحى وما يتصل بها من أدب أو تراث بتجريح أو تزييف، وفيما عدا ذلك كان الرجل رقيق الحاشية وضىء الطلعة مهذب القلم فى نطاق من سعة الاطلاع وعمق الفكر ورصانة الأسلوب ووفرة التحصيل.

كانت أشد المعارك التى خاضها الأستاذ الرافعى ضراوة هى تلك التى وقعت بينه وبين الأستاذ الدكتور طه حسين، وهى ما يطلق عليها معركة كتاب «فى الشعر الجاهلى». والحق أن طرفى المعركة لم يكونا الرافعى وطه حسين وحدهما، ذلك أن المعركة كانت بسبب التعريض بالقرآن الكريم وبجوانب من تاريخ الأدب، ومن ثم فقد اشترك فيها ـ فى صف الرافعى ـ عدد غير قليل من العلماء والأدباء.

كان الدكتور طه حسين قد ضمن كتابه سالف الذكر أفكارًا حول الشعر الجاهلى جديرة بالمناقشة، وأخرى أدت إلى العراك والتنابذ بالألقاب، لأنها تتعلق بالقرآن الكريم ومصداقيته وذلك فى قوله فى جرأة غير محمودة». وللتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضًا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى إثبات وجودهما التاريخى، فضلاً عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إبراهيم وإسماعيل إلى مكة، ونحن ـ ولا يزال الكلام لطه حسين ـ مضطرون أن نرى فى هذه القصة نوعًا من الحيلة فى إثبات الصلة بين العرب واليهود من جهة والإسلام واليهودية والتوراة والقرآن من جهة أخرى.

إن هذه الأفكار التى اختلقها طه حسين حول القرآن الكريم أثارت مشاعر المسلمين من علماء وجمهرة، وانبرى للرد عليها كبار العلماء والمفكرين من مصريين وعرب، ومن أشهرهم الأمير شكيب أرسلان والشيخ محمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدى والدكتور محمد أحمد الغمراوى والشيخ محمد أحمد عرفه وكثيرون غيرهم، وكان

مصطفى صادق الرافعى هو الذى فجر هذه المعركة باعتبار أنها تمس القرآن الكريم - كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - مسًا مباشرًا وكان الرافعى فارس الحلبة وقائد الكتيبة، فكتب وحده بضعة وعشرين مقالاً الأمر الذى دفع القضاء إلى التدخل وانتهى الأمر بمصادرة الكتاب واعتذار طه حسين لرئيس الجامعة.

ومن معارك الرافعى الأخرى ما جرى بينه وبين الأستاذ العقاد الذى كان صديقا له، دائم الثناء على كتبه ومقالاته وبخاصة كتابه «المساكين» ولكن العقاد تفوه بكلمات جارحة حين كتب الرافعى كتابه «إعجاز القرآن» الذى نكتب له هذا التقديم، وكان العقاد آنذاك لم يطرق بعد باب العقيدة الإسلامية، فقسا الرافعى عليه بعدد من المقالات الحادة ونشرها بعد ذلك فى كتابه المشهور «على السفود».

ومن الطريف فى هذا الصدد أن يكون العقاد بعد الرافعى هو حامل الراية فى حقل الدفاع عن الإسلام وإصداره عشرات الكتب الإسلامية، ولعل من معارك الرافعى التى كانت من الخطورة بحيث لا يصح إغفالها، معركته ضد أنصار العامية الذين كان على رأسهم الأستاذ أحمد لطفى السيد الذى كان يلقب بأستاذ الجيل، فقد كان يدعو إلى استعمال اللهجة العامية المصرية تحت شعار أسماه تمصير اللغة. فانبرى له الأستاذ الرافعى وذحض هذه الدعوة بمقالاته الناقدة النافذة، مما اضطر الأستاذ أحمد لطفى السيد أن يتحول عن فكرة استعمال العامية إلى فكرة أخرى يظن أنها أقرب إلى القبول فدعا إلى ما أسماه «المصالحة بين العامية والفصحى» ولكن الرافعى ظل يلاحقه بمقالاته

التى حملت لطفى(*) على الرجوع عن فكرته، ثم يصير بعد ذلك أحد سدنة اللغة الفصيحة حين صار رئيسا لمجمع اللغة العربية بمصر.

الرافعى كاتبا :

أما أن الرافعى كاتب زكى القلم، ثرى الفكر، رائد تقويم وإصلاح، فهذه حقيقة لا شك فيها، ولا اختلاف عليها، وإنما الذى نقصد إليه هو منهج الرافعى فى الكتابة ومنحاه فى الإمساك بالقلم.

كان منهج الرافعى هو الحفاظ على اللغة العربية والحرص على نقاء أسلوبها وبهاء بلاغتها، بحيث صار يلقب بصاحب «الجملة القرآنية» لأصالة بنية جملته، واستقامة ألفاظها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى براعة اختيار موضوعات مقاله، يتبدى ذلك بوضوح ساطع عند من ينشط لقراءة مقالاته التى ضمنها كتابه «وحى القلم»، فهو يكتب فى السياسة والإصلاح الاجتماعى، والتيار الوطنى، والنقد الأدبى، وتمجيد المحسنين من شعراء العربية قدامى ومعاصرين، والسيرة النبوية، والسلوك الإسلامى والإشراق الإلهى، وسحر الطبيعة التى أبدعها خالق الكون جل وعلا.

بل أنه يغرب أحيانا حين يتناول موضوعات سياسية أو اجتماعية مثل «استنوق الجمل» و«أرملة حكومة» والطائشة» و«الجمال البائس» و«قبح جميل» و«الأيدى المتوضئة» و«درس من النبوة» و«عام الحزن» وهو العام الذى توفيت فيه خديجة أم المؤمنين وأبو طالب عم الرسول ﷺ.

(*) الصواب، أحمد لطفى السيد.

وعن الشعراء يكتب الرافعى عن «أمير الشعراء فى العصر القديم» يعنى به «امرأ القيس» و«أبا تمام» وشوقى «وبعد شوقى «حافظ إبراهيم» و«شعر صبرى» و«الملاح التائه» و«ديوان الأعشاب» لمحمود أبو الوفا.

ثم هو بعد ذلك أبو المقالة الإسلامية ورائدها، والمدافع عن القرآن وأركان الإسلام عقيدة وشريعة، بقلم يقتل بغير جروح، ويصرع بغير دماء، ويعتبر العدوان على اللغة العربية عدوانا على الإسلام، ويعد الدفاع عنها دفاعا عن الإسلام، لأنها لغة القرآن الكريم، كتاب الله ووحى السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فنرى الرافعى يكتب عن «الإسراء والمعراج» كمعجزة إلهية خص الله بها محمدا دون غيره من الأنبياء والمرسلين، ويكتب عن «الهجرة» و«مولد الرسول» وعن الدعوات التى يخاصمها الإسلام مثل دعوة ارتداء القبعة، وانصياع مصطفى كمال لكيد اليهود المتتركين وإسقاط الخلافة العثمانية والقضاء على صلة تركيا بالعالم الإسلامى.

الرافعى شاعرا :

قليلون فى تاريخ الأدب العربى أولئك الذين جمعوا بين الإجادة فى النثر والإبداع فى الشعر، فمن الأقدمين عرفنا فى المشرق إبراهيم بن العباس الصولى وإبراهيم بن هلال الصابى، وفى المغرب والأندلس كان ابن شهيد وابن زيدون وابن الأبار(*)، وأما فى العصر الحديث فإن أصحاب هذه الموهبة من القلة بمكان، وإذا لم يكن بد من ذكر بعض هؤلاء القليلين فإن مصطفى صادق الرافعى يكون فى المقام الأسمى بينهم.

(*) المحقق.

ومن البداهة بمكان أن هذا المقام لا يتسع لتناول شعر الرافعى إلا فى أضيق نطاق، فهو أحد شعراء الوطنية المصرية، وناظم ثلاثة من أجمل الأناشيد الوطنية المصرية، أولها :

حماة الحمى ياحماة الحمى هلموا هلموا لمجد الزمن

فقد صرخت فى العروق الدما نموت نموت ويحيا الوطن

ومنها النشيد الحماسى العذب :

اسلمى يامصر إننى الفدا ذى يدى إن مدت الدنيا يدا

ومنها أيضا نشيد :

إلى العلا إلى العلا بنى الوطن إلى العلا كل فتاة وفتى

ومن شعر الرافعى العذب ما أنشاه متغنيا فيه بكل من مصر ولبنان، وذلك من منطلق كونه مصرى المولد والثقافة والهوية من ناحية، وأن أجداده من لبنان فى أرض الشام، مما أوحى إليه شعرا كثيرا رقيقا تمثله هذه الأبيات.

يانسمة النيل مرى بالسلام على نسيم وادى الهوى من أرض لبنان

قلبى يرف رفيف الطير بينكما كأنما أنتما فيه جناحان

ومن شعره الرقيق فى هذا السياق حنينه إلى طرابلس الشام موطن آبائه وأجداده إذ يقول :

فياطرابلس حيتك المنى بلدا بى من هوى الحسن فيك فوق ما أصف

أحس بين ضلوعى كلما خطرت ذكراك ان إليك القلب ينعطف

والرافعيون ينتسبون إلى عمر بن الخطاب جدا لهم، وهم فخورون كل الفخر بهذا النسب الرفيع، ولذلك لما أراد مصطفى أن يرثى والده بعد وفاته، لم ينس أن يذكر فى مرثيته هذا النسب :

تروعك منه هيبة عمرية وحسبك من أمسى له عمر جدا

فجاء كحد السيف يهتز مصلتا يد الله منه وحدها سنت الحدا

كما اعتصرته أنفس عربية رماحا وأسيافا وألسنة لدا

ومن كان فى التاريخ لحد جدوده تجده من التاريخ قد ورد المهدا

وللرافعى شعر غزلى رقيق، فقد كان واحدا من عشاق الأديبة اللبنانية المصرية الإقامة «مارى زيادة» التى اشتهرت باسم «مى «وكان كل كبار الأدباء المصريين يحضرون ناديها «صالونها الأدبى» وكانت ذات أدب وفتنة، وإن لم تكن ذات حسن وجمال. وكان للرافعى - شأنه فى ذلك شأن أترابه الأدباء - ولع بها وكان واحدا من عشاقها، فأنشأ فيها غزلا كثيرا يحمل معانى غير سوقية ولا مترخصة، وفيها يقول :

ها أنت مريم والهوى عيسى وعيسى كان رد الروح من آياته

قولى لكاهنك الذى قدسته قولا وعودى فاسمعى لصلاته

فلسوف يزعم أنها فى آية نزلت من الإنجيل أو توراته

وللرافعى فى «مى» غزل كثير تضمنته قصائد عدة، ولكنه كما سلف القول لم يكن متهافتًا فى قوله ولا مترخصًا فى غزله -، ويحرص على أن يعبر عن هذه القيمة فى قوله :

قلبى يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

مؤلفات الرافعى :

لم تكن آثار الرافعى القلمية هى تلك المقالات الكثيرة المتباينة الأغراض المختلفة الأساليب، مضافًا إليها هذا القدر النفيس من الشعر الذى جمع أغراضا مختلفة، وطنية، واجتماعية، ووجدانية، وحسب، وإنما خلف لنا الرافعى عددًا غير قليل من الكتب التى استهدف بعضها أحاسيسه الوجدانية، واستهدف بعضها الآخر تحليلات اجتماعية وتصورات عقلية، واستهدف الصنف الثالث الأدب العربى تاريخًا وإبداعًا، والقرآن الكريم : علومًا وإعجازًا.

الكتب الوجدانية :

ألف مصطفى صادق الرافعى أربعة كتب من الوجدانيات، فقد كان ذا حس رهيف، وقلب سريع الخفقان، لا يلبث طويلاً حتى يترجم عن رهافة أحاسيسه وخفقات قلبه فى كتاب، فكان حصاد ذلك: «رسائل الأحزان» و«السحاب الأحمر» وأوراق الورد» و«حديث القمر».

رسائل الأحزان :

إن كتاب «رسائل الأحزان»، يطلق عليه المؤلف «رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب»، وهو يضم خمس عشرة رسالة هى فى جملتها ثمرة علاقة حب ربطت بين المؤلف وبين الأديبة اللبنانية» مارى زيادة» التى اتخذت من مصر مقامًا وسكنًا، وجعلت من بيتها منتدى يتردد عليه كبار أدباء مصر، وقد سلف ذكر أسماء أكثرهم، وقد استطاعت «مى» أن تدخل فى روع كل واحد من هؤلاء الأدباء أنه - دون غيره - الأثير لديها، والأقرب إلى قلبها، وقد رويت فى ذلك قصص كثيرة وأخبار شتى.

لقد أنشا الرافعى كتابه هذا سنة ١٩٢٤ ويستهل مقدمته له قائلاً : ياعزيزى الحبيب، فقدتنى زمنا إن يكن فى قلبك منه وخزة ففى قلبى منه حز السيف، لم أنسك نسيان جحود، وإن كنت لم أذكرك ذكرى الوفاء فأبعث إليك بخبر يترجم عنى، إذ كنت فى سجن أنا الآن منطلق منه، لا تجزع ولا تحسبنه سجن الحكومة، إن هو إلا سجن عينين ذابلتين كان قلبى المسكين يتمرغ فى أشعة ألحاظهما كما يكون المقضى عليه إذا أحاطت به السيوف «إلى أن يقول : «فقدتنى صديقا يهز يدى بتحيته، والآن أعود إليك شاعرا يهز قلبك بأنينه».

إن الرسائل الخمس عشرة لا تحمل عناوين، وإنما تحمل أرقاما : الأولى ثم الثانية ثم الثالثة وهكذا، وهذه الرسائل ليست جميعها نثرية، فإن بعضها قصائد شعرية خالصة، تصور وجدانا ملتهبًا، مثل الرسالة الثالثة، وبعضها الآخر رسائل تجمع بين الشعر والنثر.

وإذا كان الرافعى قد ذكر أن هذه الرسائل هى رسائل «مى» إليه فإن القارىء لا يتردد - بعد قراءتها - فى أنها بقلم الرافعى نفسه، ولأمر ما نسبها إلى مى لكى يبدو معشوقا أكثر منه عاشقا.

كتاب السحاب الأحمر :

وعلى النسق نفسه، والغرض ذاته، والموضوع عينه، كتب الرافعى كتابه «السحاب الأحمر» وإن كان قد جنح فيه إلى الإغراب فى الأسلوب، والإكثار من الأحاجى، ولكن فى ثوب أنيق من الألفاظ وصوغ بهيج من المعانى، يجعل القارىء يتوقف طويلا أمام كثير من صفحاته، ولكنه فى آخر أمره ابن شرعى لكتاب رسائل الأحزان.

كتاب أوراق الورد :

إن هذا الكتاب يمثل الحلقة الثالثة من سلسلة كتب الرافعى فى حبه «مى» وشدة كلفه بها، وإن كان قد طرزه فى المقال الأول منه بذكر عدد كبير من الشعراء العاشقين ومعشوقاتهم من الشاعرات فى الجاهلية والإسلام، بادئا بأشهرهم وهو مجنون بنى عامر صاحب ليلى، وقيس بن ذريح وصاحبته لبنى، وتوبة الحميرى وصاحبته ليلى الأخيلية، والمرقش وأسماء، وعروة وعفراء، وعمرو بن العجلان وصاحبته هند، ذو الرمة ومى، والمخبل السعدى والميلاء، وابن زيدون والأميرة ولادة، وغيرهم وغيرهن.

وكتاب أوراق الورد يضم رسائل مى إلى الرافعى ورسائله إليها، وإن فاتحته لهذا الكتاب تكشف جوانب عشق عميق متهدج، ومشاعر وله يزحم بها صدره ويجعل فؤاده دائم النبض سريع الخفقان. يقول الرافعى فى هذه الفاتحة «وإنه ليس معى إلا ظلالها، ولكنها ظلال حية تروح وتجىء فى ذاكرتى، وكل ما كان ومضى هو فى هذه الظلال الحية كائن لا يفنى، وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجمًا إلى لغة عينيه، أصبحت أراها فى هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكرها» ويمضى الرافعى فى شرح هواه قائلا» : «وكان لها فى نفسى مظهر الجمال، ومعه حماقة الرجاء وجنونه، ثم خضوعى لها خضوعًا لا ينفعنى، فبدلنى الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيالى خضوعًا لايضرها».

ولقد ابتكر الرافعى فى «أوراق الورد: ما يشبه مايطلق عليه بعض المتشاعرين فى هذه الأيام «قصيدة النثر» وذلك فى قوله :

فى نفسى عالم أحلام من خلق عينيك الذابلتين

وفى نفسك عالم أسرار من خلق أفكارى المعذبة

خرجنا كلانا بالحب والجمال من حد الإنسان إلى حد العالم

وتحولنا كلانا بالهوى من حالة شخص إلى حالة عقل

كيف تجدين ما فى وانك لتعلمين أنك فى

وتضم أوراق الورد مقالات تحمل معانى مستغربة مستعذبة تحت عناوين لا تخلو من طرافة مثل : «منى السلام»، الحبيبات والمصائب»، «جواب الزهرة الذابلة»، «رواية القلم»، «وكتاب لم تكتبه الغضبى»، «صلاة فى المحراب الأخضر»، «استمداد فلسفة»، وغير ذلك من هذا اللون الغريب الشأن البديع الصوغ البارع الألوان.

أما لماذا أطلق الرافعى على كتابه هذا العنوان الجميل «أوراق الورد». فإنه يقول فى ذلك «هذا كتاب «أوراق الورد» فحدثنى من حدث فى سبب هذه التسمية قال : كانت معها ذات يوم وردة، لا أدرى أيتهما تستتشى الأخرى، فجعلت لها ساعة من حفاوتها، تلمسها مرة صدرها، ومرة شفتيها، والوردة بين ذلك كأنما تنمو فى شعاع وندى، إنى رأيتها وقد تفتحت وتهدلت حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاها ظمأى.

ويمضى الرافعى قائلاً : ثم تأملتها شيئًا، ثم نحت إلى بصرها وقالت: ما أرى هذا الحب إلا كورق الورد فى حياته ورقته وعطره

وجماله، ولا أوراق الوردة إلا مثله فى انتشارها على أصابع من يمسها إذا جاز فى مسها حدا بعينه من الرفق، ثم فى تفترها على إلحاح من يتناولها إذا تابع إلحاحه عليها ولو بالتنهد. يقول الرافعى: ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها، فقال لها : وضعتها رقيقة نادية فى صدرى، ولكن على معان فى القلب كأشواكها، فاستضحكت وقالت: فإذا كتبت يوما معانى الاشواك، فسمها «أوراق الورد».

كتاب حديث القمر :

و«حديث القمر» هو الحلقة الرابعة فى سلسلة الوجدانيات التى أمتع الرافعى بها نفسه أولاً، ثم بعد ذلك أمتع الآخرين. إن الرافعى يستهل هذا الكتاب بمقدمة يطلق عليها «غرض الكتاب» ومع أن غرض هذا الكتاب قريب كل القرب من إخوته الثلاثة السابقة، فإنه يصر على أن لحديث القمر غرضا مخالفا، وهدفا مباينا فيقول : «هذه مقالة صرفت فيها وجه الحديث إلى القمر، وبعثت إلى الكون فى أشعة الفجر كلماتها.

«ولقد كان القمر بضيائه كأنه ينبوع يتفجر فى نفسى، فكنت أشعر بمعانى هذا الحديث مايشعر الظمآن اللهف قد بلغ الرى وتندى الماء كبده، فأحس بروحه تتراجع كأنما تخدرها قطرات الماء.

ونشرت على خيوط القمر ليلا من ليالى الجمال، دونه شباب الشاعر الغزل، يمتد مع ألحاظ قاتلته الحسناء».

ويمزج الرافعى بين أشعة القمر وبين الطبيعة فى سياج من الأفكار الروحانية، والهمسات الإيمانية المتسربلة بأطياف الخشوع من جلال

الله، ويستطرد – ولا يزال يتحدث عن غرض الكتاب – كتبتها وانا أرجو أن تكون الطبيعة قد اوحت إلى بقطعة من مناجاة الأنبياء، التى كانت تستهل فى سكون الليل فيعيها كأنه ذاكرة الدهر، وأن تكون قد بثت فى ألفاظى صدى من تلك النغمات الأولى، التى كان يتغنى بها أطفال الإنسانية، فتخرج من أفواههم ممزوجة بحلاوة الإيمان الفطرى، وتذهب فى السماء متهادية كأنها طائرة بروح من اطمئنان قلوبهم، وتسيل فى ضوء الصباح وظل الشمس ونور القمر كأنها فى جمال الطبيعة أفكار طيور مغردة تدور على ألسنتها.

وقد قسم الرافعى كتابه هذا إلى فصول ثمانية، لا تحمل عناوين محددة وإن كانت تحمل زوايا عديدة معينة يديرها جميعًا على محاور من مناجاة القمر والطبيعة بأفكار متزاحمة، ومعان متشابكة متتابعة، وأساليب رقيقة وضاءة، يمزج فيها بين الفرح والحزن، والبسمة والدمعة والموت والحياة.

وفى مختتم الفصل الأخير – يقول الرافعى : «لقد ساهرتك أيها القمر لأحادثك، وناجيتك لاستخراج الفكر من نفسى فإنه لا يستدعيه شىء كالحديث، وانتضيت هذا الفكر لأجلى منه الحقيقة النفسية المحجبة، وتأملت الحقيقة لأرى ذلك الشعاع الإلهى الذى لا يخالطه شىء حتى يذوب فيه شعاع مثله، وهو نور الحقيقة الذى رأيناه فى حبة القلب، فسميناه الحب، ولقد ملأت قلبى منه، وأسبغته على إسباغاً، ومددت لى فيه حتى تناولت به الجمال السماوى.

وفى موضع آخر من نهايات هذا الفصل يقول الرافعى : الحب! إحدى كلمتين هما ميراث الإنسانية وهدية التاريخ، والطرفان اللذان تلتقى عندهما السماء والأرض.

كلمتان ليس لهما من المعانى غير الحقيقتين الخالدتين: حقيقة الألوهية فى الروح، وحقيقة الإنسانية فى القلب : هما الدين والحب، خرجا من الجنة مع آدم وحواء، فكان الدين فى تقوى آدم وتوبته، وكان الحب فى جمال حواء ودموعها.

وبعد فتلك أربعة كتب دبجتها براعة الرافعى فى خصوبة ونعومة، ورقة وصفاء، ووفرة وثراء، ربما يبدو المعنى بين حين وآخر مستغلقا كأنما يحتاج إلى مفتاح، أو مستبهما يحتاج إلى مبين، غير أن القارىء إذا أقبل على القراءة مخلصا لها، متابعا السطور فى روية ونفس هادئة، لا يلبث طويلاً حتى ينفتح ما قد استغلق، ويبين ما قد استبهم.

بقى بعد ذلك فى هذا النطاق أن نقرر أنه على كثرة ما كتب الرافعى عن الحب، ووفرة ما كابد من حرارة الشوق، وظمأ العاشقين، فإن كلمة نابية واحدة لم تجر على سن قلمه، وإن لفظة واحدة جارحة للسمع أو خادشة للحياء لا تقع عليها عين قارئه، وكأن قاموسه فى الحب قد تنزه عن الألفاظ الجارحة للحس، وسبب ذلك واضح مفهوم. فقد كان الكاتب الكبير لا يتخلى عن دينه إذا كتب ولا يبتعد عن سجيته إذا شعر، وقد سبق أن سجلنا بيته الرقيق والنفيس :

قلبى يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

كتاب المساكين :

هذا الكتاب يمثل جانبا من فكر الرافعى ومدى ارتباطه بحياة الناس، وبخاصة المساكين، واستطاع من خلال هذا النهج أن يقدم للمكتبة العربية كتابا لا أشك فى أنه ينتسب إلى نوعية فريدة من الفكر والعاطفة والمحتوى والسلوك.

كان الرافعى ذا قلب رهيف، ودين متين، وسلوك مستقيم، وكان إلى ذلك محبا للمساكين، مرتبطا بهم، حانيا عليهم، وليس ثمة شك فى أن ميله إلى المساكين كان مستمدا من آيات الكتاب العزيز فى شأنهم. لقد قرأ بل حفظ قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

(البقرة : ١٧٧).

كذلك يحفظ الرافعى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء : ٣٦).

وكان الرافعى يحفظ أيضًا فيما حفظه من القرآن الكريم آية الصدقات وهى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ

عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة : ٦٠).

فالله تعالى يولى عباده عطفًا كبيرًا ويخص المساكين بنصيب وافر من التوصية عليهم والعناية بشأنهم، فجعل ذلك كله يلفت نظر الرافعى، وهو الرجل القرآنى السلوك، إلى العناية بهم والعطف عليهم، ثم زاد الرافعى اقترابا منهم واندماجًا فيهم، قول الرسول ﷺ فى إحدى ابتهالاته : (اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين).

كانت حصيلة ما استقر فى خاطر الرافعى قد ترجم عنه بكتابه هذا الذى جعل عنوانه وموضوعه «المساكين» الذى اشتمل على جملة من الفصول تدور فى مجملها حول الفقر والفقراء، والمسكنة والمساكين، محبًا لهم، حانيًا عليهم، راثيًا لحالهم، متعاطفًا معهم تعاطفًا ملك عليه كيانه وتفكيره.

وأما وحى الكتاب ومصدر ما حوى من فلسفة المسكنة فهو رجل مسكين من أهل قرية «جناج» بمحافظة الغربية اسمه الشيخ على جمعة، وترجع صلة الرافعى بقرية جناج إلى أنها قرية أصهاره. إن الرافعى يقدم تعريفًا جيدًا بقوله فى مقدمة الكتاب :

«هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته برقعة جديدة، فقد بليت والله أثواب الفقر وإنها لتتسدل على أركانه مزقًا مهدلة يمشى بعضها فى بعض، وإنه ليلفقها بخيوط من الدمع، ويمسكها برقع من الأكباد، ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل، وأمل إلى خيبة،

وخيبة إلى هم، وأقبح من الفقر ألا يظهر الفقر كاسيًا، أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية، أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين».

«وأنت ربما رأيت الرجل من الناس وبه من جمال الدنيا مسحة الدينار، وعليه من نضرة هذه الحياة ألوان الجنة والنار، وما تشك فى أنه واسع البسطة، عريض النعمة، طيب المكسبة، وهو على ذلك رقعة خلق (يعنى بالية) فى أذيال الفقر يجررها على أقذار الحياة وأدناسها، ولو نطق له الغنى لقال :

دعنى فما كل ذى متربة فقير، ولا ذى مثراة غنى، والفضائل قائمة فى الدنيا بالضعفاء والفقراء، ولكن من نكد الدنيا أن عنوانها هم الكبراء وحدهم، على أن أكثر هؤلاء لا تكون منهم فى كل أمة إلا الطبقة المنحطة انحطاطًا عاليًا».

ويتحدث الرافعى فى «المساكين» عن الفقر وبواعث وجوده، وعن ثمرات بلواه التى منها الحسد، وإن الفقر والحسد يورثان الطمع حيث تظهر الرذيلة وينتشر البخل، وفى سياق الحديث عن الفقر يقول الرافعى:

«ولقد كان الفقر عريانًا يوم كان آدم فى الأرض وليس عليه إلا ما خصف من ورق الجنة، وعاش دهرًا تحت السماء يلبس من ضياء كل كوكب، ويمرح فى ثياب بيضاء من أشعة القمرين، إذ لم يكن يعرفه أحد بعد، ولا استطار به سماع السوء فى الأحياء، بل كان عنصرًا مجهولاً فى غيث الطبيعة، ولم يكن لهذا الإنسان يومئذ من المعانى الفقرية غير شعور طبيعى لا زيغ فى تأويله عن الطبيعة.

من هو الشيخ على؟

يقول الرافعى عنه : «هو رجل تراه فى ظاهره من الدنيا، ولكن باطنه يلتحق بما وراء الطبيعة.. ينظر إليك كما تنظر إليه، فأنت تتبين فى سحنته الواضحة أوصاف الجنون الهادىء، وتعجب من منظر تلك العاصفة النائمة فى عينيه، وهو يستجلى منك معنى الغرابة فى قدره إذ أنشأك مثالا غير مفهوم، ويطيل عجبه منك أنك على ما فيك تتعجب منه، فكل رجل فى رأيه إنما هو صورة من الرجل الصحيح الذى لم تزور فيه حرفة العيش ومطالب الحياة شيئًا على الله».

ويستمر الرافعى مكملاً رسم بقية صورة الشيخ على فيقول: «هذا الشيخ على كله أرض بور، فهو عصر برأسه من تاريخ الأخلاق، وعلى أى الوجوه اعتبرته رأيته كشيوخ الفلاسفة وحكماء الدنيا، يعيش فى الناس بعقل غير العقل».

ويتألق الرافعى حين يوضح مدى صلة الشيخ على بالدنيا طردًا وعكسًا ويرى أن «الشيخ على» والدنيا خصمان، وإن الشيخ على هو المنتصر عليها، ويصوغ تلك الخصومة وذلك الانتصار على نحو من القول رفيع الذرى:

هو والدنيا خصمان فى ميدان الحياة، غير أن أمرهما مختلف جدًا، فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها، ولم يقع فيها، وقهرها هو لأنها لم تظفر به».

ويغرب الرافعى حين يقول عن عقل الشيخ ويقينه: «أما عقله فعند الله، وأما حقه فقد أوجبه الله، وأما يقينه فلا يعلمه إلا الله، فكيف يرى مغلوبًا لاصطلاح أو عادة، وأكثره راسخ فى السماء».

إن كتاب المساكين حافل بالحديث عن هذا الصنف الضعيف من البشر، يقدمهم فى قوالب من التصور شتى، وفى نماذج من السلوك متفاوتة، وأشكال من الأحوال مستغربة، وقد أجهد الرافعى نفسه فى كتابته ما لم يجدها فى كتاب آخر من كتبه الكثيرة ومقالاته العديدة، لأنه أراد أولاً أن يحلل النفس البشرية بكل نوازعها، الخيرة منها والشريرة، والصالحة منها والخبيثة، فأرخى لقلمه العنان من خلال معايشته للشيخ «على جمعة» فكان حصيلة ما أراد، هذا الكتاب الغريب شكلاً، العميق موضوعًا الذى جعل عنوانه «المساكين».

الرافعى يؤلف «تاريخ آداب العرب»:

كان أمرًا متوقعًا ـ وقد عشق الرافعى لغة قومه ودينه، ودافع عن حماها وذاد عن حياضها ـ أن يؤلف كتابًا فى تاريخ أدابها، وما لبثت قريحته أن جادت عليه وعلى قراء العربية وعشاقها بالجزء الأول من «تاريخ آداب العرب» و كان ذلك سنة ١٣٢٩هـ، ١٩١١م.

لقد رأى الرافعى أن يلتزم منهجًا فى التأليف يختلف عما هو مألوف من حيث كتابة تاريخ الأدب تبعًا لتتابع العصور، وهو المنهج الذى ابتدعه المستشرقون، ويعلل الرافعى رفضه هذا المنهج الذى صنعه المستشرقون قائلاً: «بيد أن تلك العصور إذا صلحت أن تكون أجزاء للحضارة العربية التى هى مجموعة الصور الزمنية لضروب الاجتماع وأشكاله، فلا تصلح أن تكون أبوابًا لتاريخ آداب اللغة التى بلغت بالقرآن مبلغ الإعجاز على الدهر، ولم تكد تطوى عصرها الأول حتى كان أول سطر كتب لها فى صفحة العصر الثانى شهادة الخلود وما بعد أسباب الخلود من كمال.

ويستطرد الرافعى شارحًا منهجه فى قوله: إن تاريخ الآداب ليس فنًا من الفنون العملية التى يحذو فيها الناس بعضهم حذو بعض، ويأخذ الآخر منها مأخذ الأول، وتتساوى فيها الأمم على وضع واحد.. وإنما التاريخ حوادث قوم بعينهم، والآداب اللسانية ليست أكثر من موضوعات يتواطأ عليها أولئك القوم، تخرج منها الحوادث المعنوية التى هى ميراث التاريخ كله فى أيديهم من العادات والأخلاق على أنواعها، فتاريخ الآداب فى كل أمة ينبغى أن يكون مفصلاً على حوادثها الأدبية، لأنها مفاصل عصوره المعنوية، والشأن فى هذه الحوادث التى يقسم عليها التاريخ أن تكون مما يحدث تغييرًا محسوسًا فى شكله، وأن تلحق بمادته تنوعًا خاصًا بنوع كل حادثة منها.

ويعود الرافعى مرة أخرى إلى المستشرقين - أصحاب المنهج السائد الشائع فى كتابه « تاريخ الأدب» - فيقول: إن المستشرقين فيما أرى لم يختاروا ذلك الوضع إلا لمكان العجمة منهم، إذ لا سليقة لهم فى العربية وآدابها وأن كان منهم رؤوس فى بعض فنون التاريخ العربى.

وأما منهج الرافعى فى كتابه هذا فقد جعله فى اثنى عشر بابًا تشمل:

١ - تاريخ اللغة العربية ونشأتها وتفرعها.

٢ - تاريخ الرواية ومشاهير الرواة.

٣ - منزلة القرآن الكريم من اللغة وإعجازه وتاريخه.

٤ - الخطابة والأمثال.

٥ ـ تاريخ الشعر العربى ومذاهبه.

٦ ـ حقيقة المعلقات ودراسة شعرائها.

٧ ـ أطوار الأدب العربى وتقلب العصور به من تاريخ أدب الأندلس إلى سقوطها.

٨ ـ ثم يتعرض للكتابة تاريخًا وفنًا وأسلوبًا ورجالاً.

٩ ـ حركة العقل العربى وأصناف الآداب جاهلية وإسلاما.

١٠ ـ تاريخ التأليف عند العرب ونوادر الكتب العربية.

١١ ـ الصناعات اللفظية وولع المتأخرين بها فى النظم والنثر.

١٢ ـ وأخيرًا فى الطبقات.

تلك هى محتويات كتاب الرافعى «تاريخ آداب العرب» بأجزائه الثلاثة.

أما الجزء الأول الذى نقدمه فى هذا السياق فيشتمل على تاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك، كما اشتمل على دراسة تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة، صنع المؤلف ذلك فى تفصيل واسع وإضافة أوسع، مشتملاً على الكليات والجزئيات والشخصيات مع الإكثار من الاستشهاد والوفرة فى تقديم الأمثال، فجاء الكتاب فى صورة من الإجادة غير مسبوقة، جذبت انتباه شيوخ الأدب ورواده، فتباروا فى الثناء عليه، وتسابقوا فى إظهار الإعجاب به وفى مقدمة هؤلاء الشيوخ والرواد الأمير شكيب أرسلان،

والأستاذ أحمد لطفى السيد والدكتور طه حسين، برغم ما بينه وبين الرافعى من خصومة وشحناء.

وأما الجزء الثانى فقد خصصه الرافعى لإعجاز القرآن الكريم والعلوم القرآنية، وهو الموضوع الذى سوف نتناوله بعد قليل بشىء من الإفاضة والدراسة.

وأما الجزء الثالث فقد كتبه الرافعى مشتملاً على الفصول الباقية من الرابع إلى الثانى عشر على النحو الذى بيناه فى الصفحة السابقة، ولكن الرافعى توفى قبل أن يبعث بمخطوطة هذا الجزء الثالث إلى المطبعة، وحين تهيأت الأسباب لطباعته.تبين أن الفصول الرابع والثامن والتاسع والثانى عشر مفقودة، ومن ثم فإن الكتاب لم يطبع على النحو الذى تركه الرافعى عليه، وإنما طبع منقوصًا، ومع ذلك فإن الفصول التى كتب لها البقاء تمثل عملاً علميًا باهرًا.

لقد تناول المؤلف فى الفصل الخامس تاريخ الشعر العربى من حيث نشأته وأول من قصد القصائد والشعر فى القبائل، والرجز، وسيما الشعراء وألقابهم، والارتجال والبديهة، والمقلين والمكثيرن من الشعراء، والاختراع والاتباع، وشياطين الشعراء، وطبقات الشعراء، والشاعرات، وموضوعات الشعر، والفنون المحدثة منه كالموشح والشعر الملحون، ونوابغ الوشاحين وكتب التوشيح، وقد استغرق هذا الفصل خمسا وستين ومائة صفحة.

ومثل ذلك من الدراسة والتجويد يقال عن الفصل السادس الخاص بالمعلقات وأصحابها، وقد خصص المؤلف الفصل السابع لأدب الأندلس،

وهو فصل جيد، ويعد من بواكير الدراسات المشرقية التى تعاملت مع العلوم والفنون الأندلسية، فاهتم بالفلسفة والفلاسفة والعلوم اللغوية والأدبية، واليهود فى الأندلس وترجمة كتب الفلسفة، ثم تحدث عن مصرع العربية فى الأندلس ومحاكم التفتيش.

أما الفصل العاشر فهو على نفاسته مؤسس على الإيجاز وإن كان موضوعه من الأصالة بمكان، لأنه تناول التأليف ونشأته عند العرب ونوادر الكتب العربية مثل كتب المختارات والحماسات.

فإذا كان الحديث عن الفصل الحادى عشر والأخير بسبب ضياع مخطوطة الفصل الثانى عشر، فإننا نقرر أنه دراسة جيدة للصناعات اللفظية التى أولع به الأدباء المتأخرون، مثل لزوم مالا يلزم، والشينية والسينية، والقوافى المشتركة، والقصائد المعراة، أى القصيدة الخالية من أحد أحرف الهجاء، والقصائد محبوكة الطرفين وهى التى تكون القصيدة فيها مبتدأة ومختتمة بحرف واحد من حروف المعجم، وذوات القوافى، والقوافى الحسية، والتخميس والتشطير، وما يقرأ نظمًا ونثرًا، والملاحن والأحاجى والألغاز والمعميات وغير ذلك من هذه الفنون التى عنى بها شعراء العصور الوسيطة. وهى وإن كانت ثقيلة من حيث كونها صنعة شعرية، فإنها فى الوقت نفسه تدخل فى باب الملاطفات الفنية والمداعيات الشعرية.

ويبدأ الكتاب بما قيل من هذه الفنون فى القرن الخامس وينتهى بالقرن الثالى عشر الهجريين، وعلى الرغم من جهد المؤلف فإن هذا الفصل يمثل نماذج قليلة، يفيد منها القارئ غير المتخصص، وأما القارئ المتخصص فليس له فيه كبير غناء.

على أن الكتاب فى جزئه الثالث الذى بين أيدينا مع أخويه الجزئين الأول والثانى، يعد عملا علميًا فريدًا ودراسة أدبية جامعة شكلت فى جملتها مباحث رائدة فى ميدان الدراسات الأدبية وتشهد للرافعى بالجدية والريادة فى حقل الدراسات الأدبية العربية.

الرافعي يكتب إعجاز القرآن

إن كتاب إعجاز القرآن هو فى حقيقة أمره الجزء الثانى من كتاب «تاريخ آداب العرب» أو يشكل الحلقة الوسطى من سلسلة تاريخ آداب العرب، وقد مر بنا عند الحديث عن الجزء الأول من هذه السلسلة أن الرافعى حين وضع منهجه انطلق من حقيقة أن اللغة العربية لغة جديرة بالعناية والقداسة لأنها لغة القرآن الكريم، وكان ذلك سببًا فى انصراف المؤلف عن المنهج التقليدى الذى وضعه المستشرقون لدراسة الأدب العربى، ووضع منهجًا ابتكره، رآه أليق بدراسة الأدب العربى، فكان المنهج الذى وضعه موصول الأسباب بتاريخ اللغة ونشأتها وتفرعها وما يتصل بذلك، ثم تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تفرع من ذلك في ميدان الشعر واللغة فى تفصيل دقيق ومنهج موسع ودراسة شاملة.

أما والشأن كذلك فى ماهية اللغة العربية ثراء وعمقًا واتساعًا وصلة بالقرآن الكريم، فقد عمد الرافعى إلى أن يكون الجزء الثانى من كتابه دراسة للقرآن الكريم وإعجازه، وألحق به فصلاً عن البلاغة النبوية.

ويوضح الرافعى منهجه فى مقدمة هذا الجزء الثانى من تاريخ آداب العربية بقوله: «إنا قد أفردنا هذا الجزء بالكلام فى إعجاز القرآن الكريم وفى البلاغة النبوية، وقصرناه من ذلك على ما كان مرجع أمره إلى اللغة فى وضعها ونسقها والغاية منها إلى ما يتصل بجهة من هذه الجهات، أو يكون مبدأ فيها أو سببًا عنها أو واسطة إليها، وهذا فى الحقيقة هو وجه الإعجاز الغريب الذى استبد بالروح اللغوية فى أولئك العرب الفصحاء، فاشتملت به أنفسهم على خلق من العزيمة الحذاء[1] دائبًا لا يسكن كأنه روح زلزلة، فلم تزل من بعده ترجف الأرض حيث انتقلوا».

ويمضى الرافعى فى تصوير خطته ومنهجه قائلاً: «ولا يخفين عليك أن ذلك فى مرده كأنه باب من فلسفة اللغة، فهو لاحق بما قدمناه من أمرها يستوفى ما تركناه ثمت[2]، ويبلغ القول فى محاسنها وأسرارها فيكون بعض ذلك تمامًا على بعضه، إذ اللغة هناك مفردات، واللغة ههنا تركيب، وليس رجل ذو علم بالكلام العربى وصنعته ينازع أو يرتاب فى أن القرآن معجزة هذه العربية فى بلاغة نظمه، واتساق أوضاعه وأسراره، فمن ثم كانت مادة الاتصال فى نسق التأليف بين هذا الجزء والذى قبله.

وعلى الرغم من هذا الجهد الكبير الذى بذله الرافعى فى كتابه هذا، فإن الرجل لا يستعلى ولا يتباهى، وإنما يلبس ثوب التواضع ويرتديه كاسيًا حين يقرر فى وضوح وشفافية: «ولسنا نزعم حفظك الله أن كتابنا

---

(١) يعنى العزيمة الماضية التى لا يلوى صاحبها على شىء.

(٢) يعنى هناك فى الجزء الأول.

هذا قد أحاط بوجوه الإعجاز من كتاب الله»، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ويمضى قائلاً: «على أنا مع ذلك استغرقنا الهم، والتمسنا كل ملتمس، وبرئنا إلى النفس من تبعة التقصير فيما يبلغ إليه الذرع أو تناله الحيلة، فنهضنا لذلك الأمر نهضًا، وسبكنا فيه سبكًا محضًا، فإن قصرنا فضعف ساقه العجز إلينا، وإن قاربنا فذلك من فضل الله علينا».

الزعيم سعد زغلول يشيد بالكتاب:

وحين صدر الكتاب وصار منشورًا على الناس، استقبل استقبالاً حارًا من صفوة الرجال والعلماء المسلمين بصورة أوفر وأعمق مما استقبل به الجزء الأول، ولكن فريقًا صغيرًا من المنكرين على قلتهم كانوا يتهامسون فيما بينهم بسوء، فزعًا من أن يضعف صفوفهم، ويعيد إلى حظيرة الإيمان عددًا منهم، الأمر الذى دعا سعد زغلول باشا زعيم مصر وكبير ساستها فى العصر الحديث إلى أن يكتب تقريظًا دافئًا للكتاب، بعث به إلى المؤلف المؤمن قال فيه:

«تحدى القرآن أهل البيان فى عبارات قارعة محرجة، ولهجة واجزة مرغمة، أن يأتوا بمثله أو سورة منه، فما فعلوا، ولو قدروا ما تأخروا، لشدة حرصهم على تكذيبه ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم».

«إن هذا العجز الوضيع بعد ذلك التحدى الصارخ، هو أثر تلك القدرة الفائقة. وإن هذا السكوت الذليل بعد ذلك الاستفزاز الشامخ، هو أثر ذلك الكلام العزيز».

«ولكن أقوامًا أنكروا هذه البداهة وحاولوا سترها، فجاء كتابكم «إعجاز القرآن» مصدقًا لآياته، مكذبًا لإنكارهم، وأيد بلاغة القرآن وإعجازه بأدلة مشتقة من أسراره فى بيان مستمد من روحه كأنه تنزيل من التنزيل، أو قبس من نور الذكر الحكيم».

«فلكم على الاجتهاد فى وضعه والعناية بطبعه شكر المؤمنين وأجر العاملين والاحترام الفائق. ثم مهر الزعيم الكبير كتابه النفيس بتوقيعه حتى يكون وثيقة وبرهانًا.

ومن العلماء الأجلاء الذين بهرهم كتاب إعجاز القرآن فأصر على أن يكتب مقدمة له العالم العلم تلميذ الإمام محمد عبده، السيد محمد رشيد رضا، وهو من هو علمًا وفضلاً وشهرة، استهلها بقول الله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

وهى مقدمة وافية ضافية، جمعت بين العلم وبين تأنيب تلك الفئة الملحدة التى أشار إليها الزعيم سعد زغلول فى كتابه سالف الذكر، وعنها يقول السيد رشيد رضا:

«وقد نبتت فى مصر نابتة من الزنادقة الملحدين فى كتاب الله، الصادين عن دين الله، قد سلكوا فى الدعوة إلى الفكر والإلحاد شعابًا جددًا، والتشكيك فى الدين طرائق قددًا، منها الطعن فى اللغة العربية وآدابها، والتمارى فى بلاغتها وفصاحتها، وجحود ما روى عن بلغاء الجاهلية من منظوم ومنثور، وقذف رواتها بخلق الإفك وشهادة الزور،

ودعوة الناطقين باللسان العربى المبين إلى هجر أساليب الأولين، واتباع أساليب المعاصرين.

ويمضى السيد رشيد فى كشف إفك المنكرين للقرآن الكارهين للغة الفصحى والداعين إلى استعمال العامية قائلاً: (ومنهم الذين يدعون إلى استبدال اللهجة العامية المصرية بلغة القرآن الخاصية القرشية، والغرض من هذا وذاك صد المسلمين عن هداية الإسلام، وعن الإيمان بإعجاز القرآن، فإن من أوتى حظا من بيان هذه اللغة، وفاز بسهم رابح من آدابها حتى استحكمت له ملكة الذوق فيها، لا يملك أن يدفع عن نفسه عقيدة إعجاز القرآن ببالاغته وفصاحته، وبأسلوبه فى نظم عبارته وقد صرح بهذا من أدباء النصرانية المتأخرين الأستاذ جبر ضومط مدرس علوم البلاغة بالجامعة الأمريكية فى كتابه «الخواطر الحسان»).

إن مقدمة السيد محمد رشيد رضا وافية بالغرض، ضافية بالبرهان، وإن ما اجتزأناه منها لا يغنى عن قراءتها جميعها. وهى مثبتة فيما يلى من صفحات.

هذا ولم يقف الإعجاز بكتاب إعجاز القرآن عند المسلمين وحدهم، بل إن كثيرًا من العلماء المسيحيين قد سطروا ذلك فى كتبهم ومقالاتهم، مثل شهادة الأستاذ ضومط.

وفى مصر يطلع الدكتور يعقوب صروف منشىء مجلة « المقتطف» على كتاب إعجاز القرآن الذى نتحدث عنه فى هذه الصفحات، فيقول: يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن أن تكون عنده نسخة من هذا الكتاب.

ومن العلماء الأدباء غير المسلمين الذين أشادوا بكتاب إعجاز القرآن الشيخ نصيف اليازجى فى مقدمة كتابه «نجعة الرائد» والشاعر الكبير خليل مطران الذى كان يلقب بشاعر القطرين.

الرافعى يصف القرآن:

لقد هام الرافعى بالقرآن حبًا وشغل به إيمانًا وعقيدة؛ فقد كان القرآن يعيش فى فؤاده، ويسكن قلبه، ويلازم خواطره، لأن القرآن كتاب الله وكلامه، فهو نور الإيمان، ومفتاح الطريق إلى الله، وكان الرافعى عميق الإيمان بالله شديد التعلق بكتاب الله، ومن ثم كان أول موضوع استهل به الرافعى كتاب الإعجاز هو «القرآن، وعن القرآن يقول الرافعى:

«آيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هى منها كواكب، بل الجند الإلهى قد نشر له من الفضيلة علم، وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها، وامتنعت عليه «أعراف» الضمائر فابتز» «أنفالها»، وكم صدوا عن سبيله صدًا، ومن ذا يدافع السيل إذا هدر؟! واعترضوه بالألسنة ردًا، ولعمرى من يرد على الله القدر، وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب[1] وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب، فما كان إلا نور الشمس، لا يزال الجاهل يطمع فى سرابه، ثم لا يضع منه قطرة فى سقائه، ويلقى الصبى غطاءه ليخفيه بحجابه، ثم لا يزال النور ينبسط على غطائه».

---

(١) الإبل إذا تشاجرت وتصاولت هزت أذنابها كعلامة لتهديد بعضها بعضًا.

وفى فقرة أخرى يقول الرافعى عن القرآن:

«ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الأخرة، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها، تصف الأخرة، فمنها جنتها وضرامها، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب.

ويقول المؤلف عن القرآن فى فقرة أخرى:

«لا جرم أن القرآن سر السماء، فهو نور الله فى أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود فى دولة الأرض إلى أن تدول، وكذلك تمادى العرب فى طغيانهم يعمهون، وظلت آياته تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون».

وفى مجال وصفه القرآن يتحدث المؤلف عن منهجه فى دراسته فيعمد إلى التوضيح والتبيين، ولكن فى إطار من أسلوبه الهائم، وسياج من صوغه النورانى البديع فيقول: «وبعد، فإنا سنقول فى القرآن الكريم مما يتعلق بلغته، ويتصل ببلاغته، ويكشف عن أوجه الإعجاز فى ذلك، لا ننفذ بغير سبب لما نحن بسبيله، ولا نذهب فى الكلام عن نتيجة من نتائجه، ولا يكون من شأننا أن نتزيد بما ينزل من عرضنا منزلة القافية، أو نتكثر بما وراءه بمثبتة أو نافية، فإن هذا القرآن ما يزال يهدى للتى هى أقوم، وأن النول فيه مازال كثير المذاهب، متعدد الجهات متصل الحدود، يفضى بعضها إلى بعض، إذ هو كتاب السماء إلى الأرض مستقرًا ومستودعًا، وقد جاء بالإعجاز الأبدى الذى يشهد على الدهر،

ويشهد الدهر عليه. فما من جهة من الكلام وفنونه إلا وأن واجد إليها متوجهًا فيه، وما من عصر إلا وهو مقلب صفحة منه حتى لتنتهى الدنيا عند خاتمته فإذا هى خلاء «من الجنة والناس».

والقرآن كتاب الله وكلامه، ومن ثم كانت طبيعته أن يخلد، والخلود لابد أن يكون مرسومًا بالقوة بريئًا من التطامن، وهى ـ طبقًا لكلام الرافعى ـ قوة الخلود الأرضى، فلا سبيل عليه لسير الزمن وحوادثه بما تبليه أو تستجده، إنما هو روح من أمر الله تعالى، هو نزلة وهو يحفظه، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

أما وقد قدم الرافعى لقراء العربية وسائر المسلمين مفهوم القرآن الكريم وتصوره له، لقد رسم طريقه فيما سوف يتناوله منهجًا ومقصدًا متضمنًاالحديث عن تاريخ القرآن من حيث جمعه وتدوينه، ويذكر أن ابتداء الوحى كان فى سنة ٦١١م بمكة، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب التى تحول اسمها إلى «المدينة المنورة» بعد وصول الرسول إليها واستقراره فيها، واستمر نزول الوحى حتى قبيل وفاته ﷺ، وعرفت السور التى نزلت بمكة باسم السور المكية، وكذلك عرفت تلك السور التى نزلت بالمدينة المنورة بالسور المدنية، وكان بعض الصحابة يكتبون ما يسمعونه من رسول الله ﷺ. وكان الذين جمعوا القرآن كله ودونوه كل على حدة عددًا غير قليل، بيد أن إجماع الصحابة كان على ما جمعه كل من على بن أبى طالب، معاذ بن جبل، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله ابن مسعود، غير أن المصاحف التى خصت بالثقة كانت ثلاثة:

مصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبى بن كعب، ومصحف زيد بن ثابت، فقد عرض عبد الله بن مسعود السور المكية على رسول الله ﷺ، وأما أبى ابن كعب فقد عرض على رسول الله ﷺ ما نزل عليه من السور المدنية، وأما زيد بن ثابت فقد عرضه جميعه على رسول الله ﷺ سنة وفاته وبقراءته.

وانطلق الرافعى فى تفصيل عملية جمع القرآن حتى انتهى الأمر إلى الجمع الأخير الذى سمى «مصحف عثمان» للاطمئنان الكامل إلى أن هذا المصحف هو ما نزل على الرسول ﷺ كاملاً غير منقوص، وكتبت منه سبع نسخ، أرسلت منها نسخة إلى مكة، وأخرى إلى الشام وثالثة إلى اليمن، ورابعة إلى البحرين، وخامسة إلى البصرة، وسادسة إلى الكوفة.. وحبست بالمدينة واحدة، وهو مصحفه الذى سمى بالإمام، ثم أمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق.

القراءة والقراء:

ثم أفرد الرافعى بعد ذلك بحثًا عن القراءة وطرق الأداء قال فى مستهله: «هذا الفصل مما نتأدى به إلى الكلام فى لغة القرآن، فهو سبيلنا إليها فى نسق التأليف، إذا القراءة والأداء أمران يتعلقان باللفظ ويبنيان على وجوه اللغة التى قام بها . يقول الرافعى: نزل القرآن على رسول الله ﷺ بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب فى خصائصها العجيبة وما تقوم به، مما هو السبب فى جزالتها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها واجتماعها من ذلك على تأليف صوتى يكاد يكون موسيقيًا محضًا فى

التركيب والتناسب بين أجراس الحروف، والملاءمة بين طبيعة المعنى وطبيعة الصوت الذى يؤديه».

وبعد أن يتناول المؤلف نظم القرآن مع بقاء الإعجاز الذى تحدى به، مع اليأس من معارضته، يتحدث عن اختلاف بعض الألفاظ فى قراءتها اختلافًا صح جميعه مع رسول الله ﷺ، وصحت قراءته، وكان أعلم العرب بوجوه لغتها، ويطيل الرافعى الحديث فى هذا المقام، ويتمثل بحوار عبد الله بن مسعود مع أصحابه لما خرج من الكوفة وهم يودعونه، وقوله لهم: لا تنازعوا فى القرآن، فإنه لا يختلف ولا يتلاشى ولا ينفد لكثرة الرد، وإن شريعة الإسلام وحدوده وفرائضه فيه واحدة. ولو كان شىء من الحرفين ـ أى القراءتين المختلفتين ـ ينهى عن شىء يأمر به الآخر كان ذلك الاختلاف، ولكنه جامع ذلك كله، لا تختلف فيه الحدود ولا الفرائض ولا شىء من شرائع الإسلام، ولقد رأيتنا نتنازع فيه ـ والكلام لعبد الله بن مسعود ـ عند رسول الله ﷺ، فيأمرنا نقرأ عليه فيخبرنا أن كلنا محسن، ولو أرى أحدًا أعلم منى بما أنزل الله على رسوله لطلبته حتى أزداد علمًا على علمى، ولقد قرأت من لسان رسول الله ﷺ سبعين سورة، وقد كنت علمت أنه يعرض عليه القرآن فى كل رمضان، حتى كان عام قبض فعرض عليه مرتين، فكان إذا فرغ، أقرأ عليه فيخبرنى أنى محسن.

القرّاء السبعة:

أما وقد أنهى الرافعى بحثه عن القراءة وطرق الأداء، فإنه يعقد فصلاً ـ أو بحثًا ـ للقراء الذين اشتهر منهم سبعة على عهد الصحابة،

وهم: عثمان وعلى، وأبىّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعرى، الذين أخذ عنهم كثير من الصحابة والتابعين فى الأمصار، ثم جاءت طبقة بعد هؤلاء، ثم اشتهر من الطبقة التى تلتهم الأئمة السبعة الذين تنسب القراءات إليهم حتى اليوم وهم: أبو عمرو بن العلاء المتوفى ١٥٤هـ ويعرف بشيخ الرواة، وعبدالله بن كثير المتوفى ١٢٠ هـ، ونافع بن نعيم المتوفى ١٥٦هـ، وعبدالله بن عامر اليحصبى المتوفى ١١٨هـ، وعاصم بن بهدلة الأسدى المتوفى ١٢٨هـ، وحمزة بن حبيب الزيات العجلى المتوفى ١٥٦هـ، وعلى بن حمزة الكسائى إمام النحاة الكوفيين المتوفى سنة ١٨٩هـ، هؤلاء القراء السبعة هم المتفق على قراءاتهم بالاجماع، إذ لكل واحد منهم سند فى روايته، وطريق الرواية عنه، ثم جرى اختبار ثلاثة آخرين من أئمة القراءة صحت وتوترات قراءاتهم، وهم أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدنى المتوفى ١٣٢هـ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمى المتوفى سنة ١٨٥هـ وقيل بل سنة ٢٠٥هـ وخلف بن هشام بن طالب البزاز الأسدى المعروف بخلف القارئ المتوفى ٢٢٩هـ وهؤلاء هم أصحاب القراءات العشر وما عداهم فشاذ.

وكان من الطبيعى، وقد فرغ الرافعى من الحديث عن القراء، أن يجرى بحثًا عَن وجوه القراءة التى صارت علمًا من علوم القرآن، وقدصنف العلماء القراءات على ثلاث مراتب: متواترة وآحاد وشاذة، وجعلوا المتواتر السبع، والآحاد الثلاث المتممة للعشر، ثم ما يكون من قراءات الصحابة مما لا يوافق ذلك، وما بقى فهو شاذ، وقد جعلوا للقراءة الصحيحة ثلاثة أركان هى: موافقة العربية، ورسم المصحف، وصحة السند، ومتى اختل ركن من هذه الأركان أو أكثر أطلق عليها أنها ضعيفة أو شاذة أو باطلة.

التلحين ولغة القرآن والأحرف السبعة:

يعمد الرافعى بعد ذلك إلى قراءة التلحين، ذاكرًا أنه كان فى الصحابة والتابعين رضى الله عنهم من يحكم القراءة على أحسن وجوهها، ويؤديها بأفصح مخرج، فكأنما يسمع منه القرآن غضًا طريًا لفصاحته، وعذوبة منطقه، وانتظام نبراته، وهو لحن اللغة نفسها فى طبيعتها، لا لحن القراءة فى الصناعة. على أن كثيرًا من العرب كانوا يقرأون القرآن ولا يعفون أنفسهم مما اعتادته فى هيئة إلقاء الشعر بالإنشاد، فلما كانت المائة الثانية، كان أول من قرأ بالتلحين والتطنين عبيد الله بن بكرة، وكانت قراءته حزنًا ليست على شيء من ألحان الغناء والحداء، فورث ذلك عنه حفيده عبدالله بن عمر بن عبيدالله، وهو الذى يقال عنه قراءة ابن عمر، ثم أخذها عنه الإباضى، ثم أخذ عن الإباضى سعيد بن العلاف، وصار سعيد رأس هذه القراءة فى زمنه وعرفت به، لأنه اتصل بالرشيد، فأعجب بقراءته، وكان يحظيه ويعطيه حتى عرف بين الناس بقارئ أمير المؤمنين.

ثم يعقد الرافعى بعد ذلك فصلاً عن لغة القرآن ويقول: إنه كان طبيعيًا أن ينزل القرآن بلغة قريش، لأن رسول الله ﷺ قرشى إذ لو لم ينزل القرآن بلسان قريش لما اجتمع له العرب، ويستطرد الرافعى قائلا: ولما كان الوجه الذى أقبل به القرآن على العرب وجه تلك البلاغة المعجزة، فقد كان من إعجازه أن يأتيهم بأفصح ما تنتهى إليه لغة العرب جميعًا، وسبيل ذلك كان من لغة قريش.

وقد استوفى القرآن أحسن ما فى لغات العرب من معان، فكثير من تلك اللغات قد اندمجت فى لغة قريش، وبان منها فى تلك الصيغة التى أظهرته على تنوعه فى الأوضاع التركيبية مظهر النوع الواحد، وهى مناسبة معجزة فى نفسها، لأن التأليف بين المواد المختلفة على وجه متناسب ممكن، ولكن التأليف بينها على وجه يجمعها ويجمع الأذواق المختلف عليها كما اتفق القرآن أمر لا يقول بإمكانه من يعرف معنى الإمكان. أما اللغات التى نزل بها القرآن غير لغة قريش فهى لغة بنى سعد بن بكر التى كان النبى ﷺ مسترضعًا فيهم، ثم جشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، وتلك هى أفصح لغات العرب جملة، ثم خزاعة وهذيل وكنانة وأسد وضبة وكانوا على مقربة من مكة يكثرون التردد عليها، ومن بعدهم قيس وألفافها التى فى وسط الجزيرة. ونقل الواسطى فى كتابه عنه «القراءات العشر» إن فى القرآن أربعين لغة عربية ذكرها جميعًا بدءاً بقريش وانتهاء باليمامة، ولقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرأوه بلحونهم وإن اختلفت وتناقضت، ثم بقى مع ذلك على فصاحته وخلوصه، وجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات من منطق الكلام، كتحقيق الهمز وتخفيفه، والمد والقصر، والفتح والأمادة وما بينهما، والإظهار والإدغام، وضم الياء وكسرها من «عليهم» «وإليهم» وإلحاق الواو فيهما فى لفظتى منهمو وعنهمو وإلحاق الياء فى «اليه» و«عليه» و«فيه» ونحو ذلك، وسار الرافعى على هذا النهج فى التعريف بلغة القرآن الكريم ضاربًا الأمثلة مستحضرًا النماذج التى تنير للقارئ طريقه.

ويستتبع ما ذكره الرافعى عن لغة القرآن، أن يفرد دراسة سريعة موجزة عن الأحرف السبعة، ويورد حديث رسول الله ﷺ فى قوله الشريف: «**أُنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل منها ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع**» ثم اختلف العلماء فى تأويل الحديث وفى تفسير هذه الأحرف، لكن الأكثرين على أنها سبع لغات من لغات قريش وألفافها من ظواهر مكة إلى قيس. و«يشير الرافعى إلى قول بعض العلماء: إنى تدبرت الوجوه التى تختلف فيها لغات العرب فوجدتها على سبعة أنحاء، لا تزيد ولا تنقص، وبجميع ذلك نزل القرآن، وعدّد الرافعى نماذج من الأحرف السبعة، ويقول العالم الذى نسب إليه الرافعى نماذج من الأحرف السبعة «إن هذه الوجوه السبعة التى بها اختلف لغات العرب قد أنزل الله باختلافها القرآن متفرقًا فيه ليعلم بذلك أن من زل عن ظاهر التلاوة بمثله أو من تعذر عليه ترك عادته (اللغوية) فخرج إلى نحو ما نزل به، فليس بملوم ولا معاقب عليه، وكل هذا فيما إذا لم يختلف فى المعانى «ويعلق الرافعى على ذلك فيقول «وهو قول حسن يحمل به الحديث على معنى القراءات التى هى فى الأصل فروق لغوية، وإن كان بعض الأحرف قد قرئ بسبعة أوجه نحو (ملك يوم الدين) و«عبد الطاغوت» فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة: ٦٠).

وللرافعى رأى مستقل اجتهد فى التوصل إليه أسوة بالعلماء السابقين، وهو أن للفظ سبعة رمز إلى ما آلفه العرب من معنى الكمال فى هذا العدد، وحاول طويلاً الدفاع عن اجتهاده.

مفردات القرآن، وتأثير القرآن فى اللغة، والجنسية العربية فى القرآن:

وهذه مباحث ثلاثة أخرى تناولها الرافعى واحدًا بعد آخر.

إن هذه المباحث من التناغم بعضها مع بعض، بحيث أن جميعها مع سابقاتها تكون سلسلة متلاحمة الحلقات وتصب فى معين واحد هو المنهج الذى رسمه الرافعى لكتابه.

وأول هذه المباحث التى تناولها الرفاعى من تلك المباحث الثلاثة جاء بعنوان مفردات القرآن، ومقصود المؤلف من «مفردات القرآن» هو ألفاظ القرآن، وهو موضوع تناوله علماء «علوم القرآن» ذلك أن فى القرآن ألفاظًا اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وكما يقول الرافعى ليس المقصود بغرابتها منكرة أو نافرة أو شاذة، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة هنا هى التى تكون حسنة مستغربة التأويل، بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس، وجملة ما عدوه من ذلك القرآن كله سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً، جميعها روى تفسيره بالسند الصحيح عن عبدالله بن عباس، وكان رضى الله عنه يقول: الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه.

أما منشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب، أن يكون ذلك من لغات متفرقة، أو تكون مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب، كالظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثة، أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذى يفهم من ذات الألفاظ كقوله

تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٨). أى فإذا بيناه فاعمل به وكان الصحابة رضى الله عنهم يسمون فهم هذا الغريب (إعراب القرآن) لأنهم يستبينون معانيه ويلخصونها، وقد روى أبو هريرة فى ذلك «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه» ولذلك قال العلماء فى تلك الأفاظ المعربة التى اختلطت بالقرآن: إن بلاغتها فى نفسها إنه لا يوجد غيرها يغنى عنها فى مواقعها من نظم الآيات لا إفرادًا ولا تركيبًا، ومن ألفاظه ما يسميه أهل اللغة بالوجوه والنظائر، والإفراد.

والوجوه والنظائر هى الألفاظ التى وردت فى القرآن بمعان مختلفة كلفظ الهدى ففيه سبعة عشر وجهًا بمعنى الثبات، والدين، والدعاء، ونحوها. ومن هذه الألفاظ: الصلاة والرحمة والسوء والفتنة والروح وغيرها. وأما الإفراد فهى ألفاظ تجىء بمعنى مفرد غير المعنى الذى تستعمل فيه عادة.

والمبحث الثانى فى هذه الحلقة خصصه الرافعى لتأثير القرآن فى اللغة العربية وعبر عن ذلك بقوله: نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره، ويضرب الرافعى الأمثال من آيات القرآن التى يبدو فيهاالإعجاز البيانى والأخلاقى والاجتماعى، ثم يقرر أنه لولا القرآن وأسراره البيانية ما اجتمع العرب على لغته، ولو لم يجتمعوا لتبدلت لغاتهم بالاختلاط الذى وقع ولم يكن منه بد، حتى تنتقص الفطرة وتختل الطباع، ثم يكون مصير هذه اللغات إلى العفاء لا محالة، إذ لا يخلفهم عليها إلا من هو أشد منهم اختلاطًا وأكثر فسادًا، ثم يستطرد الرافعى معلقًا على هذه الحقيقة بقوله: وذلك معنى من معانى

الإعجاز، إذ لا تجده اتفق فى لغة من لغات الأرض غير العربية، وهو لم يتفق لها إلا بالقرآن، ولقد كان أسلوبه البيانى هو الذى اقتضى ما أحدثه العلماء بعد ذلك من تتبع اللغات وتدوينها ورواية شواهدها والتحمل لها، فكان صنيعهم صلة بين اللغة وبين العلوم التى أفرغت عليها من بعد، ومضى الرافعى يسوق نماذج وأسبابًا عن تأثير القرآن فى اللغة وفضله فى الحفاظ عليها مستشهدًا بقول الله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨).

والمبحث الثالث - الجنسية العربية فى القرآن - وإن بدا طويلاً فإن طوله جاء بسبب كثرة الأمثلة، فبعض الناس يراه من الغرابة بمكان، وإن كان الأمر على العكس من ذلك، فهو من الصواب بمكان ومن المعقولية بمقدار، وحسب القرآن معجزة ما تقول فيه من صفة الجنسية العربية التى جعل الأمم أحجارًا فى بنائها - والكلام للرافعى - والدهر على تقادمه كأنه أحد أبنائها، وأقام منها معضلة سياسية فى الأرض وضعها ونقدها، وفى السماء حلها ونقدها، وشد بها المسلمين، فهم إذا ائتلفوا انضموا كالبنيان المرصوص، وإذا ما تفرقوا سطعوا فى تيجان الممالك كالفصوص، وإن لم يقوموا أحيانًا بالدين قام بهم هذا الدين.

ويمضى الرافعى قائلا: فالقرآن الكريم بتمكنه من فطرة العرب على وجهه المعجز، قد نزل منهم منزلة الزمان فى عمله وآثاره، لأن الذى أنزله بعلمه، وقدره بحكمته، إنما هوخالق الزمن نفسه، فهدم فى نفوس العرب، وكان هدمه بناء جديدًا جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال

نفسها، وبذلك أحكم عمل الوراثة الذى تعمله فى الغرائز والطباع، إذ تبنى بالهدم، وتقيم التاريخ من أنقاض التاريخ، وهذا هو الفرق بين العمل الإنسانى والعمل الإلهى.

ولقد كان من أعجاز القرآن أن يجمع هؤلاء الذين قطعوا الدهر بالتقاطع على صفة من الجنسية لا عصبية فيها إلا عصبية الروح، إذ أخذهم بالفطرة حتى ألف بين قلوبهم، وساوى بين نفوسهم، وأجراهم على المعدلة فى أمورهم، فجعل منهم أمة تسع الأمم، يوجهها كيف أقبلت، لأنها لا توجهه إلا إلى الله،و فكان بينها وبين الله كل ما تحت السماء، ومن هذا المعنى نشأت الجنسية العربية.

فالعربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسى حتى صارت جنسية، فلو جُن كل أهلها وسخوا بعقولهم على ما زينت لهم أنفسهم من الإلحاد والسياسة كجنون بعض فتياننا، لحفظها الشعور النفسى وحده، وهو مادة العقل، بل مادة الحياة، وقد يكون العقل فى يد صاحبة يضن به ويسخو، ولكن ذلك النوع من الشعور فى يد الله، وهذا من تأويل قوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

والآن يحق لنا أن نقرر أن تلك الحلقات التى كتبها الرافعى وتناولناها بالإيضاح والتبيين ما استطعنا، ليست غير مباحث فى علوم القرآن، تخللتها فقرات غير قليلة من وجوه الإعجاز القرآنى.

آداب القرآن:

وأما الإعجاز الصريح فهو ما سوف نعرض له من كلام الرافعى فيما يأتى من حلقات ومباحث، وأولى هذه الحلقات هو هذا المبحث الذى

اختـار له الرافعى عنوانًا أصح ما يكون مناسبة، وهو آداب القرآن: إنه بدوره مبحث طويل إذا ما قيس بغيره من فصول هذا الكتاب، ولكنه مبحث أصيل فى نطاق منطق المنهج الذى رسمه الرافعى لكتابه، إنه يقول:إن آداب هذا الكتاب الكريم إنما هى آداب الإنسانية المحضة فى هذا النوع من الإعجاز الأدبى إن وجدت وحيث يكون.

ويقول الرافعى: وما يزال أمر الآداب الصحيحة فى كل جيل من الناس يرمى إلى غاية بعينها من الإنسانية المطلقة التى لا تُحد بألوان المصورات - يعنى خرائط الجغرافية - كما تفصل حدود الأمصار والممالك، فإن الله لم يلون الناس تلوينًا جغرافيًا، وذلك مما يدل على أن نوعًا من الإنسان لا تجزئة شرائع أرضه وعاداتها عن الآداب النفسية التى تجعل الفرد إنسانًا من الناس قبل أن تجعله تلك الشرائع وتلك العادات فردًا من أمة، غير أن الآداب تحتم على الفرد أن يكون أبدًا من الحق، لا مع الحالة التى تسمى حقًا فى لسان من تنفعه، وباطلاً فى لسان من تضره، إذ الحق فى اعتبار الآداب ما كانت فيه مصلحة الإنسانية نفسها باعتبار النظام الذى يعمها، لا مصلحة جزء منها باعتبار النظام الذى يخصه، ومبدأ الإنسانية قائم على أن الله لم يخلق إلا صنفًا واحدًا من الناس، ولكن مبدأ كل أمة سياسية أنها هى ذلك الصنف الواحد.

ويمضى المؤلف مسجلا أن الآداب لا تكون فى الإنسان إلا شرائع، ولكن الإنسان إذا عرى من الأدب النفسى، أو أدب النفس، فربما شرع لنفسه ما لا يصنع الشيطان أخبث منه، بل ما يركض فيه الشيطان

ركضًا، من أجل ذلك كانت آداب القرآن ترمى إلى جملتها إلى تأسيس الخلق الإنسانى المحض، الذى لا يضعف معه الضعيف دون ما يجب له، ولا يقوى معه القوى فوق ما يجب له، والذى يجعل الأدب عقيدة لا فكرًا، إذ تبعث عليه البواعث من جانب الروح، ويجعل وازع كل امرئ فى داخله، فيكون هو الحاكم والمحكوم، ويرى عين الله لا تنفك ناظرة إليه من ضميره.

ويشير الرافعى إلى القوى الروحية فى آداب القرآن ويخاطب ضمير قارئه قائلاً: إنك إذا تدبرتها واعتبرتها بمأتاها فى الطباع، ومساغها إلى النفوس، واشتمالها على سنن الفطرة الإنسانية، فإنك تتبين من جملتها تفصيل تلك المعجزة الاجتماعية التى نهض بها أولئك الجياع من العرب، فنفضوا رمال الصحراء على أشعة الشمس فى هذا الشرق كله، فحيثما استقرت منها ذرة وقع وراءها عربى. بل نفضوا أقدامهم على عروش الممالك، وهم كانوا بين داع للصنم وراع للغنم.

ويتحدث الرافعى عن الأخلاق، والأصل الأول فيها هو التقوى، وهى فضيلة أراد بها القرآن إحكام ما بين الإنسان والخلق، وإحكام ما بين الإنسان وخالقه، ولذلك تدور هذه الكلمة ومشتقاتها فى أكثر آياته القرآنية، وينعطف الرافعى إلى «المساواة» وهى من الآداب القرآنية التى كشفها القرآن بقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)

ثم يتحدث الرافعى عن الإنسانية وقوامها طبقًا لما ترمى إليه الآداب القرآنية، ونترك المزيد من الحديث عنها حتى يستمتع القارئ بجوهرها فى مكانها من الكتاب.

القرآن والعلوم:

وينتقل الرافعى إلى عنوان آخر أعد من خلاله بحثًا نفيسًا هو «القرآن والعلوم» فيسجل أن القرآن كان أصل النهضة الإسلامية، إذ أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو عليه فى تقدمه وانبساط ظل العقل فيه، إلا أن القرآن كان أصل النهضة التى كانت الوسيلة فى استبقاء علوم الأولين وتهذيبها، وإطلاق العقل فيما تشاء أن ترتع منها، وأخذه بالبحث والنظر والاستدلال والاستنباط وتوفير مادة الروية عليه بما كان سببًا فى طلب العلم، ومزاولة هذا لذاك، وهذا كله أساس التاريخ العلمى فى أوروبا.

وتناول الرافعى الإنجازات العلمية والقرآنية، وقام بتفصيل ذلك فى ميادين علوم اللغة والنحو والتفسير والأصول والبلاغة والفقه والتاريخ والأخبار والحكم والأمثال والخطابة والوعظ وعلم الفرائض والمواقيت وغيرها وأفاض فى ذلك كثيرًا، ويقول الرافعى - وهو قول صائب - إن بعض علمائنا استخرج من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع، وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، لقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم الحديثة وإلى تمحيصها وغاياتها فى قوله جل وعلا ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (فصلت: ٥٣).

كتاب سرائر القرآن:

ثم يعقد الرافعى مبحثًا رفيعًا للحديث عن كتاب «سرائر القرآن» لمؤلفه القائد العظيم والعالم الرياضى الفلكى المشهور الغازى أحمد

مختار باشا الذى بناه على سبعين آية من القرآن الكريم، فسرها بآخر ما انتهى إليه العلم الحديث فى الطبيعة والفلك، فإذا هى فى القرآن «منطبق السماء عن نفسها، لا يتكذب ولا يزيغ ولا يلتوى، وإذا هى تثبت أن هذا الكتاب الكريم - القرآن - سبق العقل الإنسانى ومخترعاته بأربعة عشر قرنًا إلى زماننا.

الجدير بالذكر أن كتاب «سرائر القرآن» كتب باللغة التركية وقام على ترجمته المرحوم الباحث الإسلامى الكبير محب الدين الخطيب. والكتاب يقع فى ثلاثة فصول: الأول فى كيفية تكوين العالم ووجود الحياة، الثانى فى يوم القيامة أو خاتمة عمر الأرض، والثالث فى المباحث والآيات القرآنية المتعلقة بإعادة الخلق.

إن الرافعى بحديثه عن كتاب «سرائر القرآن» قد بدأ يتعامل مع موضوعه «إعجاز القرآن» تعاملاً مباشرًا، وكل ما طرق قبل ذلك يمكن احتسابه كمدخل موسع لطرق موضوع الإعجاز، ولذلك فإن تشريه لكتاب أسرار الإعجاز لأحمد مختار باشا قد دفع به إلى أن يتعامل مع آيات الإعجاز العلمى تعاملاً مباشرًا، فشرع فى تفسير آيات خلق الإنسان من سورة «المؤمنون»﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٢ - ١٤). وقدم تفسيره لهذه الآيات الثلاث: الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة من سورة «المؤمنون» تفسيرًا علميًا مستعينًا بالمفاهيم الطبيعية التى يرددها الأطباء.

إعجاز القرآن والأقوال فيه وحقيقة الإعجاز:

ينتقل الرافعى بسرعة إلى كتابة فصل قصير عنوانه «إعجاز القرآن» وهو التسمية الكاملة التى جعلها عنوانًا لكتابه، وبذلك يكون العنوان من باب تسمية الكل باسم الجزء، ويقول مستهلاً هذا الفصل: وهذا هو الغرض الذى أردنا إليه الكلام فى كل ما مر من هذا الباب جهة إلى جهة، وأرغنا معانيه فصلاً إلى فصل، وخصنا فى دروبه معنى إلى معنى، وقد وقفناك منه على وجوه عدة، من سر كان مكتومًا، وخبء كان مجهولاً، ومقطع من الحق كان مشتبهًا، وكلها خارج عن طوق الإنسان عندما يتعاطى وعندما يتوهم، وعندما يثبت، وكلها لم يشهده الزمن إلا مرة واحدة.

ثم يقول الرافعى وقد ارتدى ثياب التواضع الصادق: ولسنا ندعى أننا أشرفنا على الأمد، وأوفينا على معجزة الأبد، فإن هذا أمر ضيق كثير الالتواء لمن تلمس جوانبه، واقتحم مصاعبه، وما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه، وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثًا وتفتيشًا، ثم هو بعد لايزال عندهم على ذلك خلقًا جديدًا، ومراماً بعيدا، وصعبًا شديدًا، وإنما بلغوا منه إذ بلغوا نزرًا تهيأت لضعفه أسبابه، وقليلاً عرف لقتله حسابه، وبقى ما وراء ذلك من الأمر المتعذر الذى وقفت عندهم الأعذار، والابتغاء المعجز الذى انحط عنده قدر الإنسان لأنه مما سمحت به الأقدار.

ينطلق الرافعى بعد ذلك فيخصص فصلين مقرونة أسبابهما بالإعجاز فى صور مختلفة هما: الأقوال فى الإعجاز، وحقيقة الإعجاز..

الاعجاز بالصرفة!!

أما عن الأقوال فى الإعجاز فإن الرافعى يثير ما قد أثير فى فتنة خلق القرآن التى تبناها المعتزلة، وأشار إلى أصلها اليهودى الذى يعزى إلى رجل يهودى يسمى لبيد بن الأعصم، كان يقول إن التوراة مخلوقة، فالقرآن كذلك مخلوق، ثم أخذها عنه طالوت ابن أخته وأشاعها، فقال بها بنان بن سمعان الذى تنسب إليه فرقة البنانية - وهم قوم من الغلاة يقولون بألوهية على - وتلقاها عنه الجعد بن درهم (مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية) وكان زنديقًا، وهو أول من تهجم على القرآن وجحد أشياء مما فيه، وأضاف إلى ذلك القول بخلقه، وبأن فصاحته غير معجزة، ثم كان أول من بالغ فى ذلك أحمد بن أبى داؤد وزير المعتصم.

ثم جاء بعد ذلك من قال إن إعجاز القرآن كان بالصرفة، وهو إبراهيم النظام الذى ادعى أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها، ويضيف الرافعى: إن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (المدثر: ٢٤). ثم يمضى الرافعى يذكر من ألفوا كتبًا فى «إعجاز القرآن» وأشهرهم أبو عبدالله محمد بن يزيد الواسطى، ثم عبدالقاهر الجرجانى فى «دلائل الإعجاز» ثم أبو عيسى الرمانى، ثم القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتابه المشهور «إعجاز القرآن»، ويضيف الرافعى إلى من سلف ذكرهم الإمام الخطابى المتوفى

قبل الباقلانى ببضع عشرة سنة، ثم فخر الدين الرازى، ثم ابن أبى الأصبع ثم الزملكانى.

حقيقة الإعجاز:

ثم يتبع الرافعى فصل الأقوال فى الإعجاز بفصل آخر لعله أطول فصول الكتاب وموضوعه «حقيقة الإعجاز» وفى مستهله يقول المؤلف: لقد استقر معنا أن القرآن معجز بالمعنى الذى يفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغًا، وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنما هو أثر من الآثار الإلهية، يشاركها فى إعجاز الصنعة وهيئة الوضع، وينفرد عنها بأن له مادة من الألفاظ كأنه مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها، وما نظنه إلا الصورة الروحية للإنسان، إذا كان الإنسان فى تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله».

إن أسلوب الرافعى فى تعريفاته السابقة قد لا يسهم كثيرًا فى أن يستوعب القارئ العادى مقصده كاملاً، ولكنه لا شك يشعر من خلال هذا الأسلوب - على عمقه وانصرافه عن اليسر فى القول، والسلاسة فى التركيب - بما يشعر به الرافعى من إعجاز القرآن والسمات الإلهية الكامنة فيه الملموسة فى روحه وبنيته.

ويمضى الرافعى فى تثبيت إعجاز القرآن فى قلب قارئ القرآن ويقول: فالقرآن معجز فى تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز فى أثره الإنسانى، ومعجزه كذلك فى حقائقه، وهذه وجوه عامة لا تخالف الفطرة الإنسانية فى شىء، فهى باقية ما بقيت، ثم يحدد الرافعى

مذهبه فى بيان الإعجاز فيقول: إن مذهبنا هو بيان إعجازه فى نفسه من حيث هو كلام عربى، لأننا نكتب فى هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير، وفى مقام المناسبة يربط الرافعى عوامل الإعجاز بين القرآن وطبيعة العرب التى تثبت فى وجدانهم حقيقة أن القرآن معجز أبد الدهر، فيقول بل يقرر أن القرآن ما جاءهم بشىء لا يفهمونه، ولا يتثبتون معناه على مقدار ما يفهمون، ولا كان هذا القرآن كتاب سياسة ولا نظام دولة، ولو كان أمرًا من ذلك ما حلفوا به، ولا استدعى هو منهم الإجابة، لأن لهم مترعًا فى الحرية لم تغلبهم عليه دولة من دول الأرض، ولا أفلح فى ذلك من حاوله من ملوك هذه الدول فى الأكاسرة والقياصرة والتبابعة، بل خلقوا عربًا يشرقون ويغربون مع الشمس حيث أرادوا وحيث ارتادوا، وهم على ذلك لم يجمعهم ولم يخرجهم إلى الدنيا، ولم يقلبهم على تصريف الأمور غير القرآن.

وفى سياق الحديث عن «حقيقة الإعجاز» يذكر الرافعى تحدى القرآن لهم، والأصل فيهم أن يتحدى بعضهم بعضا فى المساجلة والمقارضة والمناقضة بالقصيد والخطب ثقة منهم بقوة الطبع، ولأن ذلك مذهب من مفاخرهم، فكان التحدى بطلب المعارضة أولاً، ثم قرن التحدى بالتأنيب والتقريع، ثم بالاستفزاز وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٣ ـ ٢٤).

وكان طبيعيًا فى هذا الفصل أن يعرض المؤلف لذكر من حاول تقليد القرآن والتعريف بهم والإتيان بنماذج من محاولاتهم المضحكة فذكر مسيلمة، وعبهلة بن كعب، وطليحة بن خويلد الأسدى، وسجاح بنت الحارث، والنضر بن الحارث، وابن المقفع، وابن الراوندى، وأبا الطيب المتنبى، وذكر المعرى ولكنه نفى التهمة عنه.

أسلوب القرآن

يقول الرافعى فى استهلاله لهذا الفصل: «وهذا الأسلوب فإنما هو مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله، ليس من ذلك شىء إلا وهو معجز، وهو الذى قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها وضربهم بالحّجة من أنفسهم، وتركهم على ذلك يتلكأون. ويقول: فلما ورد عليهم أسلوب القرآن، رأوا ألفاظهم بأعيانها متساوقة فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق، وليس فى ذلك إعنات ولا معاياة، غير انهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه ونسق حروفه فى كلماتها، وكلماته فى جملها، ونسق هذه الجمل فى جملته ما أذهلهم من أنفسهم من هيبة رائعة وروعة مخوفة، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية وتخلف الملكة المستحكمة.

وإذا كان جل ما فى هذا الفصل قد ورد مفرقًا فى الفصول التى مضت فى تصوير وجوه الإعجاز مثل المحاكاة الغبية التى صنعها مسيلمة ومثل الصرفة التى قال بها المعتزلة، فإن الرافعى هنا رد على من قالوا بكثرة التكرار الذى يجىء فى بعض آيات القرآن، كما تحدث عن تناسب الآيات والسور وهو باب واسع ألف فيه كثير من العلماء والمفسرين من

قدامى ومحدثين، كالفخر الرازى والبقاعى والطاهر بن عاشور كما يشير الرافعى إلى الكتاب البلغاء مثل عبد الحميد الكاتب وسهل بن هارون والجاحظ، منابع بلاغتهم ومصادر فصاحتهم، ويخلص إلى أن القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعًا إنسانيًا، ولو كان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوبًا من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولو كان من كلام الناس لظهر عليه صيغ النفس الإنسانية لا محالة، وبصفات كثيرة من أحوال النفس.

ثمت معنى آخر هو مانرى فى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة فى التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التى تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر فى كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، واثبتت العلوم الحديثة كثيرًا من حقائقه التى كانت مغيبة، وفى علم الله ما يكون من بعد.

نظم القرآن

المقصود بنظم القرآن هو تكوين أسلوبه وانفراد بلاغته وتفرد فصاحته وإعجازها، ويشير الرافعى إلى أن الكلام يتركب من ثلاثة حروف هى: الأصوات، وكلمات هى من الحروف، وجمل هى من الكلم، ومع ذلك فثمت فرق شاسع بين بلاغة القرآن وبلاغة البلغاء، على الرغم من أن أدوات بناء الكلام واحدة. ويقول الرافعى إن من أظهر الفروق بين أنواع البلاغة فى القرآن وبين هذه الأنواع فى كلام البلغاء، أن نظم القرآن يقتضى كل ما فيه منها اقتضاء طبيعيًا بحيث يبنى هو عليها لأنها فى أصل تركيبه، ولا تبنى هى عليه، فليست فيها استعارة ولا مجاز

ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح فى الجواز أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره فى موضعه إذا تبدلته منه، وفضلاً عن أن يفى به، وفضلاً عن أن يربى عليه.

ثم يتوسع الرافعى فى هذه القواعد التى استهل بها الفصل فيكتب ثلاثة مباحث فيها إتمامًا للفائدة واستكمالاً للغاية، فيجعل المبحث الأول للحروف وأصواتها، والثانى للكلمات وحروفها، والثالث للجمل وكلماتها، وهى مباحث لغوية يوظفها المؤلف لتكون عونًا له على أداء غرضه فى أمانة وكمال. ويختم هذه المباحث بقوله: وإنك لتحار إذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته فى الوجوه المختلفة التى يتصرف فيها، وتقعد بك العبارة إذا أنت حاولت أن تمضى فى وصفه حتى لا ترى فى اللغة كلها أدل على غرضك، وأجمع لما فى نفسك، وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الإعجاز.

إن الرافعى وقد أنهى بحثه النفيس فى إعجاز القرآن، عنَّ له ـ وقد استغرقه حديث البلاغة ـ أن ينشىء فصولاً ثلاثة قصيرة يحمل أولها عنوان «غرابة أوضاعه التركيبية» والضمير هنا يعود على القرآن، ويحمل ثانيها عنوان «البلاغة فى القرآن» ويحمل ثالثها «أحكام السياسة المنطقية على الطريقة البلاغية» وإن أكثر ما تضمنته هذه الفصول سبق أن جاء منجمًا فى تلافيف المباحث الكثيرة التى تضمنها الكتاب، وإن كانت قراءتها فى ثوبها المستقل تضيف إلى تحصيل القارىء مزيدًا من المعرفة البلاغية وفضلاً من الصور الإعجازية.

معالم «رافعية» بارزة ومستجدة:

لقد أسلفنا القول بأن مصطفى صادق الرافعى عاش حياته فى رحاب القرآن الكريم حفظًا وتجويدًا وتفسيرًا وفقهًا بصورة شكلت معالم فى حياته يمكن أن نطلق عليها المعالم القرآنية، وهذه المستجدات البارزة يمكن التمثل لها من جهده الكبير فى كتابه عن إعجاز القرآن فى المعالم الآتية:

المَعْلَم الأول ـ بسكون العين وفتح اللام ـ ما سجله فى طول كتابه «إعجاز القرآن» وما عرضه من براهين علمية وعملية وتاريخية ومنطقية عن عجز العرب ـ أمة البلاغة والفصاحة والمحاجة ـ عن أن يأتوا بسورة من مثله، وهو موضوع موصول الأسباب بالزمان منذ أن نزل الوحى به على خاتم الأنبياء سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ إلى زماننا هذا الذى نعيشه بالعقل والإقناع والإيمان وبخاصة ما كتبه تحت عنوان «أسلوب القرآن» من مثل قوله تعالى[1].

وهذا الأسلوب فإنما هو مادة الإعجاز العربى فى كلام العرب كله، ليس من ذلك شىء إلا وهو معجز، وليس من هذا شىء يمكن أن يكون معجزًا وهو الذى قطع العرب دون المعارضة، واعتقلهم عن الكلام فيها، وضربهم بالحُجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون. ثم هو الذى مثل لهم اليأس قائمًا لا يتصل به الطمع، وصور لهم العجز غالبًا لا تنال منه القدرة، فأحرز طباعهم فى ناحية من الضعف والاستهانة، حتى كأنها غير طباعهم فى تثلمها بعد انقضائها وتراجعها بعد مضائها، وقد كانوا

(١) إعجاز القرآن صفة ١٨٨.

يتساجلون الكلام ويتقارضون الشعر ويتناقضون فى أغراضه ومعانيه، حين لم يكن من الفرق عند فصحائهم بين فن وفن من القول إلا ما يكون من تفاوت المعانى، واختلاف الأعراض، وسعة التصرف، وكان أسلوب الكلام قبيلاً واحدًا وجنسًا معروفًا، ليس إلا الحر من المنطق، والجزل من الخطاب، وإلا إطراد النسق، وتوثيق السرد، وفصاحة العبارة، وحسن ائتلافها.

ويمضى الرافعى فى حديثه عن أسلوب القرآن الكريم وما قد تميز به عن أساليب عباقرة العرب وفصحائهم، منوهًا بأن ألفاظه هى نفسها ألفاظهم، والخطاب فيه هو خطابهم ذاته، إلا أن الفطرة فى ذلك المقام شأن الفرق بينها وبين الكلام الإلهى واللفظ الربانى. يقول الرافعى ماضيًا فى حديث أسلوب القرآن وأسلوب العرب:[1].

فلما ورد عليهم أسلوب القرآن رأو ألفاظهم بأعيانهم متساوية فيما ألفوه من طرق الخطاب وألوان المنطق. ليس فى ذلك إعنات ولا معاياة، غير أنهم ورد عليهم من طرق نظمه، ووجوه تركيبه، ونسق حروفه فى كلماتها، وكلماته فى جملها، ونسق هذه الجمل فى جملته ـ ما أذهلهم عن أنفسهم، من هيبة رائعة وروعة مخوفة، وخوف تقشعر منه الجلود، حتى أحسوا بضعف الفطرة القوية، وتخلف الملكة المستحكمة، ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ماهم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكلام اللغوى الذى عرف

---

(١) المصدر السابق، ص ١٨٩.

أرواحهم وأطلع على قلوبهم، بل هو السر الذى يفشى بينهم نفسه وإن كتموه، ويظهر على ألسنتهم ويتبين فى وجوههم وينتهى إلى حيث ينتهى الشعور والحس، فليس للخلابة أو المؤاربة وجهٌ فى نقض تأثيره وعن إزالته عن موضعه، ومن استقبل ذلك بكلامه أو أراده بأى حيلة، فقد استقبل رد النفوس عن أهوائها، وردع القلوب عن محبتها، وحاول معارضة أقوى ما فى النفس بأضعف ما فيها، وهذا شىء - فيما يعرفونه - لا يستقيم لإمرىء من الناس ببيان ولا عصبية ولا هوى ولا شىء من هذه الفروع النفسية، وليس إلا أن ينقض الفطرة فيستقيم له، وما فى نقض هذه الفطرة إلا أن يبدأ الخلق فيكون إلهًا، وهذا كما ترى فوق أن يُسمى أو يعقل.

ويمضى الرافعى فى تصويره للإعجاز البيانى للقرآن الكريم معللاً هزيمة المكابرين من بلغاء قريش وغيرهم من بلغاء القبائل وخطبائها فى قوله:(١).

ولهذا انقطعوا عن المعارضة، مع تحديهم إليها على طول المدة وإفساح الأمر وعلى كثرة التقريع، والتأنيب، وعلى تصغير شأنهم وتحقيرهم، وذلك بالنزول عن التحدى بمثل القرآن كله، إلى عشر سور مثله، إلى عشر مفتريات لا حقيقة فيها، إلى سورة واحدة من مثله، ولو هم أرادوا هذه السورة الواحدة ما استطاعوها، لأن إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوى فى القرآن، مستغرق فيه. فلا يرون المعارضة تكون إلا على هذا الأصل، أو تتحقق إلا به: وهو شىء لا تناله القدرة،

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٢.

ولاتيسره القوة، لأنه على ظهوره فى أسلوب القرآن، باطن فى أنفسهم، تقف عليه المعرفة ولا تبلغه الصفة: كالروائح والطعوم والألوان وما إليها.

والرافعى حين يسخر يكون أسلوبه أكثر إيجاعًا وأشد إيلامًا منه حين يجد أو حين يجادل، ولقد صنع ذلك فى مواقف عدة وبخاصة مع أولئك الذين سولت لهم نفوسهم المريضة أن يعارضوا القرآن الكريم مثل مسيلمة الكذاب وأقرانه الذين ذكرهم الكاتب الكبير وجاء بنماذج من سخافاتهم التى لم يستحوا من أن يسموها قرآنًا. يقول الرافعى:(١).

فإن وجد منهم سفيه كمسيلمة، يحمله جنون العظمة وحب الغلبة والتحمد فى الناس، ثم كدر الفطرة وغلظ الإحساس فى نفوس أتباعه على أن يتعقب السورة أو بعض السور بالمعارضة، لا يبالى موقع كلامه، وعلى أى جنبيه كان مصرعه، فلن يكون له مذهب إلا مقابلة الكلمة بالكلمة والوزن بالوزن كما قال فى معارضته: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ (الكوثر ١-٢) فقد قال: إنا أعطيناك الجماهر، فصلِّ لربك وجاهر.. إلى آخر ما حكوا من سخافاته وحماقاته التى التمس الحجة له فكانت فيها الحجة عليه، وأراد أن يستطيل بها فتركته مثلاً فى الحماقة والسخرية.

وأما المعلم الثانى فهو ظاهرة ما أطلق عليه خصوم الإسلام «بالتكرار» يستوى فى ذلك خصوم الإسلام القدامى الذين اهتدى بعضهم، وخصوم الإسلام المعاصرين وبخاصة أولئك الذين يطلق عليهم صفة المستشرقين.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٩٣.

والأمر الذى يدعو إلى الغرابة أن يصدر هذا التحامل من قوم أعجام وإن تيسر لبعضهم الإسهام الجاد فى بعض علوم العربية فى الوقت الذى شابت أحكام صدرت عن أكثرهم الجهل حينًا والحقد حينًا آخر، والغش والمغالطة حينًا ثالثًا، ومن المؤسف أن قلة من أبناء قومنا نسجت على منوال هؤلاء الأعجام الغرباء عن لغتنا واجترأوا على القرآن الكريم بغير ما روية فى الحكم أو عمق فى التفكير، فكان من النتائج الطبيعية أن يؤدى بهم هذا الشذوذ إلى الانحراف والضلال.

إن مصطفى صادق الرافعى يسهم - كالعهد به دائمًا - فى الرد على هؤلاء جميعًا من قدامى ومحدثين، ويوضح أن هذا الذى يسمى تكرارًا إنما هو اقتضاء أملته طبيعة البلاغة والإقناع؛ مثل ذلك الذى كون فى بعض قصص القرآن لتوكيد الزجر والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحُجة ونحوها، أو فى بعض عباراته لتحقيق النعمة وتزويد المنة، والتذكير بالنعم واقتضاء شكره إلى ما يكون هذا الباب، وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا فى ضروب من خطابهم: للتهويل والتوكيد، والتخويف والتفجع وما يجرى مجراها من الأمور العظيمة، وكل ذلك مأثور عنهم منصوص عليه فى كثير من كتب الأدب والبلاغة.

بيد أن وروده فى القرآن مما حقق للعرب عجزهم بالفطرة عن معارضته وأنهم يُخلون عنه لقوة غريبة فيه لم يكونوا يعرفونها إلا توهمًا، ولضعف غريب فى أنفسهم لم يعرفوه إلا بهذه القوة، لأن المعنى الواحد يتردد فى أسلوبه بصورتين أو صور كل منها غير الأخرى وجهًا أو عبارة،

وهم على ذلك عاجزون عن الصورة الواحدة، ومستمرون على العجز لا يطيقون ولا ينطقون. فهذا لعمرك أبلغ فى الإعجاز وأشد عليهم فى التحدى، إذ هو دليل على مجاوزتهم مقدار العجز افسى الذى قد تمكن معه الاستطالة أو تتهيأ المعاريض حينًا بعد حين، إلى العجز الفطرى الذى لا يتأمل فيه المتأول ولا يعتذر منه المعتذرون ولا يجرى الأمر فيه على المسامحة.

وقد خفى هذا المعنى (التكرار) على بعض الملاحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم فى أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأتى بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو - أخزاهم الله - كان أروع وأبلغ وأسرى عن الفصحاء من أهل اللغة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيبًا[١].

ولقد استشهد الرافعى فى بعض ما أورد من حجج بما أثبته الجاحظ فى الجزء الأول من كتاب الحيوان، وهذه الحجج ربما استعارها منه بعض بلاغيى العرب كما فعل العسكرى فى كتابه الصناعتين[٢].

وإن حديث التكرار فى القرآن الكريم أمر يطول التعامل معه سواء ما كان منه صادرًا من علماء العرب أو ما كان منه من أقوال المستشرقين، لأن روح العربية وبخاصة القرآنية منها لا تبوح بسرها لغير العرب حتى

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٤.

(٢) الحيوان للجاحظ ٤٦/١.

أن عالمًا عربيًا لغويًا نحويًا مثل الكسائى يقول:«أموت وفى نفسى شىء من حتى». أى أن لفظًا عربيًا واحدًا وهو «حتى» قد استعصى عمق فهمه وكمال الدراية بأسراره على ذلك اللغوى العربى الحاذق الذى كان زعيم مدرسة الكوفة.

ونحن من جانبنا نقول للمستشرقين ـ الأصدقاء منهم والخصوم ـ إن الحكم الصائب للعربية فضلاً عن السمة القرآنية لا يتأتى لهم؛ لأنه يستعصى على كثير من علماء العربية الخُلّص، وإن الأمثلة على ذلك من الكثرة بمكان إيرادا واستحضارًا، ومن العسر بمكان فهمًا واستيعابًا فإن لفظًا متواضعًا مثل «ما» يجئ حينًا حرفًا آخر يجئ اسمًا، فهو حرف إذا كان أداة نفى أو زائدًا، وهو اسم إذا كان موصولاً أو أداة شرط فى حينما وحيثما وأحيانًا يكون مصدريًا وغير ذلك كثير، ومن ثم كان حديث الرافعى فى دفع فرية التكرار فى القرآن الكريم جديرة بموقف يدحضها وينسفه أحلام من قالوا بها.

وأما المعْلَم الثالث فهو الرد على فرية «الصرفة» فى الإعجاز القرآنى، ولقد فصل الرافعى القول فى هذا الموضوع تفصيلاً فى عدد غير قليل من صفحات كتابه، وفى أكثر من موقع فى بحثه النفيس الجليل «إعجاز القرآن».

إن أول من إبتكر هذا المصطلح ـ الصرفة ـ هو إبراهيم النظام أحد أكثر المعتزلة شهرة وذكاء، والمصطلح فى واقع أمره يحمل فكرًا خبيثًا إن لم يكن كفرًا مقنعًا ـ بتشديد النون ـ وإن مقتضى معنى «الصرفة» هو أن الله صرف العرب عن أن يقولوا كلامًا فى مستوى بلاغة القرآن، وأنه

لولا أن الله صرفهم عن ذلك لكانوا قد جاءوا بما هو مماثل له فصاحة وبلاغة وبيانًا.

ومن هنا تثور حول المعتزلة شبهات كثيرة يصعب تبريرها مثل الفتنة التى أثاروها حول القرآن الكريم، وهل هو مخلوق أم قديم، وهى فتنة مشهورة قتل وعذب بسببها عدد من كبار علماء المسلمين، قتل بعضهم وأودع البعض الآخر فى ظلمات السجن حتى وافته منيته[1].

ومن خطايا المعتزلة أنهم عملوا على نشر مذهبهم بالسيف والقهر وهو فعلٌ يصطدم مع صلب العقيدة الإسلامية وذلك مستمد من قوله تعالى: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾(البقرة: ٢٥٦) فإن كان نشر الدين بالإكراه محرمًا بصريح نص القرآن الكريم، فإنه من باب أولى يكون إكراه المسلمين على اعتاق فكر معين منسوب إلى الإسلام أشد جرمًا وأكثر حرمة.

ومجمل القول فى شأن الصرفة قد وفاه الرافعى حقه بحيث إنه قد عرَّى المعتزلة، وفضح فكرهم، وقبح مذهبهم، الذى لا يزال بعض المسلمين - وإن كانوا قلة - يميلون إليه، بل ويعتنقونه، ربما عن حسن ظن، أو عن قصور فى المعرفة والتصور.

ويتمثل المعلَّم الرابع فى أن من يسمع القرآن مرتلاً بصوت جميل، سواء أكان هذا المستمع عربيًا أو أعجميًا لا يفهم العربية، سرعان ما يخفق قلبه خفقة الإيمان التى تقوده فى آخر أمره إلى الإيمان به كتابًا مُنزلاً من عند الله لا يلبث أن يؤمن، ويدلف فى رفق إلى ساحة الإسلام

---

(١) راجع فصل المعتزلة فى كتابنا «إسلام بلا مذاهب».

المهيبة، مرتديًا ثوب الإيمان بالله ربًا واحدًا وبمحمد ﷺ رسولاً ومعلمًا وقائدًا.

ولقد تنبه مصطفى صادق الرافعى إلى هذا المعلم القرآنى حين تسمعه أُذُن نفس مطمئنة حتى لو كان صاحب هذه النفس أعجميًا غير عربى، وفى ذلك يقول الرافعى: «فلو اعتبرنا ذلك فى تلاوة القرآن على طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها فى هز الشعور واستثارته من أعماق النفس، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربى أو أعجمى، حتى أن القاسية قلوبهم من أهل الزيغ والإلحاد، ومن لا يعرفون لله آية فى الأفاق ولا فى أنفسهم، لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه، لأن فيهم طبيعة إنسانية، ولأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التى خُلقت فى نفس الإنسان، فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان»(١).

ويستطرد الرافعى مضيفًا كثيرًا من الإبانة حول هذا المعلم قائلاً: وهذه حالة مطردة يعرفها الناس جميعًا، وما من أعجمى يسمع ترتيل القرآن إن فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رقة للشجى والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج فى نفسه وتجيش نفسه بها، مع أنه لا يعتريه من ذلك شيئ إذا هو سمع الألحان العربية فى الغناء والشعر. وقد لا يجد فى الموسيقى ضربًا أسخف منها، لمكان اختلاف الأذواق، وما تجده ملحدًا لا يؤمن بالله إلا وهو مؤمن بهذا الإعجاز فى كتابه حين يسمعه مرتلاً من صوت جميل، كأن النبوة حينئذ تلامسه(٢).

---

(١) إعجاز القرآن، ص ٢١٦.

(٢) هامش الصفحة نفسها.

ويمضى الرافعى على سننه ذاكرًا ومذكرًا أن هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن صور تامة الأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقًا عجيبًا، يطلق الرافعى: على هذا المنهج من الاداء، طريقة الاستهواء الصوتى. يقول الرافعى «وهذه هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة وأثرها طبيعى فى كل نفس، فهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الإقرار والاستجابة[1].

لا شك فى أن ما يحدث من سماع بعض غير العرب - الذين يجهلون العربية - القرآن الكريم، ثم اعتناقهم الإسلام لهو أمر معجز، قد لا يكون الأمر غريبًا أن يستمع عربى غير مسلم فى سورية أو لبنان أو مصر أو السودان إلى القرآن ثم يتبع هذا السماع باعتناق الإسلام. إن ذلك قد حدث ويحدث كثيرًا، لأن المتلقى سمع بأذنه ووعى بعقله وعاطفته ما قد سمع، فانحاز بسبب ذلك إلى الرسلام عقيدة وتدينًا، أما أن يسمع أعجمى القرآن الكريم مرتلاً بدون أن يفهم معنى كلمة واحدة، ثم يدفع به هذا السماع إلى اعتناق الدين الذى سمع ترتيل كتابه - وهو القرآن الكريم - فهو معجزة واقعية لم تتكرر فى كتاب آخر، سماويًا كان أم وضعيًا.

ولقد شهد كاتب هذه السطور شيئًا من ذلك، وسوف أسرد هذه القصة المثية فى سطور قليلة.

---

(١) إعجاز القرآن، ص ٢١٧.

فى خلال السنوات التى وليت فيها شئون المكتب الثقافى بمدينة واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية فى عقد الستينيات من القرن العشرين المنصرم، طرق باب مكتبى ذات يوم زائر يطلب معاونتى له فى اختيار عناوين بعض الكتب العربية تعينه على أداء عمله بنجاح، وقد كان هذا الزائر يتحدث العربية رغم كونه نمساوى المولد والجنسية ويعمل أستاذًا للغة العربية فى جامعة جونز هوبكتر فى مدينة بلتيمور غير البعيدة عن مدينة واشنطن. إنه محمد هانز، وهو الاسم الذى اختاره لنفسه بعد إسلامه، أما كيف أسلم فتلك قصته المرتبطة ارتباطًا شديدًا بموضوعنا. كان هانز يهوى سماع الإذاعات الأجنبية وهو فى بلده.

وفى إحدى المرات سمع إذاعة غريبة اللغة والطابع، ولكنها تذيع صوتًا وكلامًا كأنه ـ حسب تعبيره ـ ينبعث من السماء، وبعد دقائق قليلة توقف الصوت عن الأداء وتبع ذلك صوت مذيع لم يتبين لغته أو جنسيته، فأبقى إبرة محطة الراديو فى مكانها، وظل يتابع هذه الإذاعة يوميًا ونجح فى الاحتفاظ على مكانها من الإرسال الذى كان يحدث مساء يوم الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، وأخذ يستضيف أصدقاء أجانب من جنسيات مختلفة ولغات متباينة حتى يتعرف عن طريقهم عن طبيعة تلك الإذاعة وحقيقة هذا الصوت الذى كأنه لجلاله وجماله منبعث من السماء، وذات مرة كان ضيفه شاب عراقى يدرس فى جامعة «فيينا» والذى تعرف على الصوت ومصدره وصاحبه من مجرد ابتداء سماعه.

يقول لى محمد هانز: لقد كان الصوت صوت الشيخ محمد رفعت - أحد أعظم من رتل القرآن الكريم - وأما المصدر فهو محطة الإذاعة المصرية، ويستطرد محمد هانز ويقول: إنه عرف أن هذه التلاوة آيات من القرآن الكريم كتاب الإسلام الربانى، ويعترف هانز بأن الإسلام أصبح شغله الشاغل فآمن به قبل أن يعرف أبعاد رسالته واقتنى ترجمة ألمانية لمعانى القرآن، ثم أتبع القراءة بتعلم العربية لغة القرآن، وكان قد اعتنق الإسلام بعد سماعه القرآن مرتلاً بصوت الشيخ رفعت مرتين أو ثلاثا، ولم يلبث أن أتقن قراءة وكتابة وحديثًا ثم قرأ إعلانًا عن حاجة جامعة جونز هوبكتر إلى مدرس للغة العربية فكان ذلك وسيلة مجيئه إلى أمريكا وسبب زيارته لى باعتبار كونى مستشارًا ثقافيًا لمصر المسلمة التى يتصور أن يجد عندها استجابة لطلبه، فأكرمت وفادته وقدمت إليه عددًا من الكتب التى أعانته على تحقيق رغبته كهدية من المكتب الثقافى لجمهورية مصر المسلمة.

هكذا أسلم محمد هانز لمجرد سماعه القرآن الكريم الذى لم يكن يعرف شيئًا عن طبيعة تلك التلاوة التى سمعها، فخلبت لبه وأدخلته إلى ساحة الإسلام من أوسع الأبواب.

لقد صدق مصطفى صادق الرافعى حين قال: «وما من أعجمى يسمع ترتيل القرآن إن فهمه أو لم يفهمه إلا اعترته رقة للشجى والنظم، وأحس أن هذه الآيات تتموج فى نفسه وتجيش نفسه بها.. ومن تجده ملحدًا لا يؤمن بالله إلا وهو مؤمن بهذا الإعجاز فى كتابه حين يسمعه مرتلاً من صوت جميل كأن النبوة حينئذ تلامسه».

لكأن الرافعى وهو يكتب هذه الكلمات قد استمع إلى محمد هانز وعرف قصته التى حدثت بعد نحو أربعين سنة من تأليفه هذا الكتاب النفيس الذى لم يكتب مثله ـ على علمنا ـ منذ أن صدر فى منتصف عقد العشرينيات من القرن الماضى.

ويتمثل المعلم الخامس فى ريادة الرافعى للتفسير العلمى للقرآن الكريم.

لقد خصص الرافعى فى كتابه هذا الذى بين أيدينا فصلاً نفيسًا جعل عنوانه: «القرآن والعلوم «خصصه للعلوم العربية وأضاف إليها بعض العلوم الكونية الموصولة الأسباب بالقرآن الكريم وبعض العبادات والمواقيت، ثم أفرد فصلاً ثانيًا بعنوان «سرائر القرآن» ثم فصلاً ثالثًا خصه بتفسير عدد من آيات خلق الإنسان.

يستهل الرافعى فصل «القرآن والعلوم» بقوله: «وللقرآن وجه اجتماعى من حيث تأثيره فى العقل الإنسانى، وهو معجزة التاريخ العربى خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية فى تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض من يوم ظهر الإسلام إلى ما شاء الله. ويستطرد الرافعى قائلاً: إنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو فى تقدمه وانبساط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه وفى نموه واستبحار عمرانه، فإنما كان القرآن أصل النهضة الإسلامية، وهذه كانت على التحقيق هى الوسيلة فى استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتع فيها[1].

---

(١) المصدر ذاته، ص ١١٤.

ومن المعروف أن الإسلام جعل طلب العلم فرضًا من فروض الدين وهذه الحقيقة أطلت على دنيا توحيد الواحد الأحد مع أول سورة نزل بها الوحى على رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١ ـ ٥) وإن آيات تحصيل العلم وتكريم العلماء مبثوثة فى القرآن بوفرة بحيث تجعل القرآن الكريم كتاب علم، وتجعل من سائر المسلمين طلاب معرفة، هذا فضلاً عن أن رسول الله ﷺ جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم.

إن القرآن الكريم صار مصدرًا، بل باعثًا على تتبع العلوم العربية سواء أكانت علوم لغة أو أدب أو تاريخ أو تفسير أو قصص أو أخبار الأولين.

يقول الرافعى: «وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها، وعلم الفرائض واستنبطوا منها ذكر النصف والربع والسدس والثمن وحساب الفرائض.

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة فى الليل والنهار و الشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك، فاستخرجوا منه علم المواقيت.

والحق أن القرآن الكريم هو الباعث الأول لخلق النهضة الإسلامية التى شملت كل العلوم من عربية ودينية وتطبيقية ولقد أشار القرآن الكريم إلى نشأة العلوم وتمحيصها وغايتها وذلك فى قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

يقول الرافعى: ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت فى معانيها عن قوله تعالى: ﴿فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ وهذه آفاق أخرى فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الأفهام شىء.

ويستطرد الرافعى متحدثًا عن الإعجاز العلمى قائلاً: ذلك وأن من أدلة إعجاز هذا الكتاب الكريم أن يخطئ الناس فى بعض تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية، ولقصر حبالهم أن تعلق بأطراف السماوات أو تحيط بالأرض، ثم تصيب الطبيعة نفسها فى كشف معانيه، فكلما تقدم النظر، وجُمعت العلوم، ونازعت إلى الكشف والاختراع، واستُكملت آلات البحث، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يقطع إليها، حتى كأن تلك الآلات حينما توجه لآيات السماوات والأرض توجه لآيات القرآن أيضًا ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف:٢١)(١).

إن الرافعى بهذه المادة التى تمثلنا له بشىء منها تنبئ بأن هذا العالم الجليل قد غمس نفسه فى خضم التفسير العلمى، هذا فضلاً عن أنه أفرد فصلاً وإن يكن قصيرًا بعنوان «سرائر القرآن» وهو – كما يقول الرافعى – «موضوع كتاب جليل للقائد العظيم والعالم الرياضى الفلكى المشهور الغازى أحمد مختار باشا رحمه الله بناه على سبعين آية من كتاب الله تعالى فسرها بآخر ما انتهى إليه العلم الحديث فى الطبيعة والفلك فإذا هى فى القرآن مُنطبق السماء على نفسها، لا يتكذب ولا

(١) المصدر ص ١٢٨ – ١٢٩.

يزيغ ولا يلتوى، وإذا هى تثبت أن هذا الكتاب الكريم - أى القرآن - سبق العقل الإنسانى ومخترعاته بأربعة عشر قرنًا إلى زماننا، وما ذلك إلى فصل من الدهر وستعقبه فصول بعد فصول»[1].

لقد ظهر هذا الكتاب فى الآستانة طبقًا لقول الرافعى بعد أن ظهرت الطبعة الأولى من كتابه الجليل الذى نقدمه من خلال هذه الصفحات يقتبس الرافعى بعض الفقرات القيمة من هذا الكتاب الجليل فيقول: «قال الغازى فى مقدمة كتابه: « فى القرآن ما يكفل للهيئة الاجتماعية سعادتها وسلامتها فى معاشها ومعادها بما حواه من الدساتير الأخلاقية والقضائية والإدارية والسياسية وعظة الأمثال والقصص، فيه إشارات وآيات بينات فى مسائل ما برحت العلوم الطبيعية تحاول الكشف عن كنهها منذ عصور، ولا سيما فى علوم التكوين والتخريب - يعنى القيامة - الذى دل الآن بنظريات الأخصائيين من علماء الفلك ومباحثهم ومشاهداتهم فى طور التقدم والارتقاء، وإنك لا تكاد تقلب من المصحف الشريف بعض صفحات حتى تجد آية فى أسرار الكائنات وأحوال السماء منظومة فى نسقها بمناسبة من أبدع المناسبات.

ويمضى الرافعى فى تقديم كتاب «سرائر القرآن» قائلا: «قال: وقد فهموا من علم الهيئة السماوية عظمة الله تعالى بعظمة الأجرام التى كانوا يحسبونها نقطًا صغيرة منثورة فى السماء. خذ لذلك مثلاً: إدراك عظمة الشمس وكوكب الشعرى بالنسبة للأرض، فإن هذه الأرض إذا

(١) المصدر نفسه ص ١٣٠.

فرضناها فرضًا بحجم الحمصة تكون مساحة الشمس بالنسبة إليها كمساحة مائدة مستديرة طول قطرها ذراع فرنسية، ومساحة كوكب الشعرى الذى قال الله فيه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾ (النجم:٤٩). تبلغ مائة ذراع فرنسية بالنسبة إلى الحمصة».

ويورد الرافعى نماذج لآيات قرآنية تحدث المؤلف عن مظاهر العظمة والإعجاز فيها مثل قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (يس:٣٨) وما تعنيه هذه الآية من دلالات الإعجاز وغير ذلك من النماذج التى أوردها المؤلف فى الفصل الخاص بذلك[١].

على أن الرافعى لا يكاد يصبر على تصنيف نفسه وعلمه كأحد رواد التفسير العلمى لأنه يفرد فصلاً بعنوان «تفسير آية» هى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٢ - ١٤).

لقد أطلعنا على كثير من التفاسير الحديثة التى تناولت هذه الآيات الكريمة وأخص منها التفسير الدقيق الذى قدمه الطبيب الدكتور كريم حسنين، فإذا بهذا التفسير العلمى الذى كتبه الرافعى قبل نحو ثمانين سنة[٢] لا يقل دقة وعمقًا عن تفسير الصديق الدكتور الطبيب كريم حسنين[*].

(١) المصدر نفسه ص ١٣٠ - ١٣٢.
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٤ - ١٣٨.
(*) استاذ بكلية الطب بجامعة عين شمس.

وإذن فإنها كلمة حق حين نلحق الرافعى بالرواد الأولين لمدرسة التفسير العلمى للقرآن الكريم.

وأما المَعْلَم السادس من معالم كتاب «إعجاز القرآن» للرافعى ولعله أهمها وأعمقها هو ما قد اصطلح علماء القرآن على تسميته باسم «المناسبة» التى يجمل الرافعى تعريفها بقوله: من أعجب ما اتفق فى هذا القرآن من وجوه إعجازه أن معانيه ترى فى مناسبة الوضع وإحكام النظم مجرى ألفاظه وذلك يربط كل كلمة بأختها، وكل آية بنظيرتها، وكل سورة بما إليها. ويستطرد الرافعى فيجعل من هذه الظاهرة القرآنية علمًا وذلك فى قوله: وهو علم عجيب أكثر منه الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره، وقد قال فيه إن أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط[1].

إن مصطفى صادق الرافعى يعد مُحييا لهذا العلم القرآنى الجليل الذى لا يقل أهمية عن علوم القرآن الأخرى، ولكن الباحثين فى حقل الدراسات القرآنية يستصعبون الخوض فى غماره لصعوبته وافتقاد العزم للاندماج فى تجربة علمية قرآنية لا يستطيع التعامل معها ألا متمرس كامل الاستعداد والأهلية لمثل هذا العمل الكبير.

إن الرافعى قد خاض هذه التجربة بفصل جيد من فصول كتابه «إعجاز القرآن» جعل عنوانه «الجمل وكلماتها» وذلك قبل ما يقرب من ثلاثة أرباع قرن من الزمان.

---

(١) راجع هامش ص ٢٤١ من المصدر نفسه.

يقول الرافعى فى هذا السياق:

«أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم فهى كيفما أدرتها، وكيفما تأملتها وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ومن أى جهة وافقتها، فإنك لا تصيب لها فى نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والإنسجام العذب، وتراها تتساير إلى غاية واحدة، وتسنح فى معرض واحد، ولا يمنعها اختلاف حروفها وتباين معانيها وتعدد مواقعها من أن تكون جوهرًا واحدًا فى الطبع والصقل وفى الماء والرونق، كأنها تتلاحم برروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك وتخالط إحساسك فلن تكون معها إلا على حالة واحدة.

تختلف الألفاظ ولا تراها إلا متفقة، وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب فى طبقات البيان وتنتقل فى منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحًا تُداخلك بالطرب، وتنتزع من نفسك حس الاختلاف الذى طالما تدبرت به سائر الكلام، وتصفحت به على البلغاء فى ألوان خطابهم وأساليب كلامهم وطبقات نظامهم، مما يعلو ويسفلُ، أو يستمر وينتقص، أو يأتلف ويختلف.. إلى غيرها من آثار الطباع الإنسانية فيما يعتريها من نقص أو كلال أو غفلة، ومما هو صورة فى الكلام لوجوه اختلافها بالقوة والضعف فى أصل الخلقة وطريقة النشأة وأسباب التحصيل وآلات الصناعة إذ كل ذلك ليس فى كل الطباع الإنسانية على سواء.

فأنت مادمت فى القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها فى جهات التركيب وموضع التأليف.

وألوان التصوير وأغراض الكلام، كأنها تفضى إليك جملة واحدة حتى تؤخذ بها[(١)].

وفى سياق هذا النهج من حديث «المناسبة» يقول الرافعى: إن الإنسان يقرأ طائفة من آيات القرآن الكريم فما يلبث أن يعرف لها صفة من الحسّ ترافد ما بعدها وتمده، فلا تزال هذه الصفة فى لسانه ولو استوعب القرآن كله حتى لا يرى آية أدخلت الضيم على أختها أو نكرت لها، أو أبرزتها عن ظل هى فيه، أو دفعتها عن ماء هى إليه. ويمضى الرافعى على سنته ونهجه الذى التزمه فيقول مسترسلاً:

إن طريقة نظم القرآن تجرى على استواء واحد فى تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفى التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتها، ثم الافتتان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل، فمن أين يدخل على قارئه ما يكد لسانه، أو، ينبو بسمعه، أو يفسد عليه إصغاءه أو يرد عما هو منه بسبيله، أو يتقسم إحساسه ويتوزع فكره، أو يورده الموارد من ذلك كله أو بعضه[(٢)].

ويتحدث مصطفى صادق الرافعى عن صحبته للقرآن الكريم منذ أن كان طفلاً فى الكُتَّاب يتلقى التلاوة عن شيخه ويذكر أن البنية الأسلوبية القرآنية من اتساق فى النظم ما يساعده على حفظه، ثم يمضى قائلاً: «لا جرم كان القرآن فى نظمه وتركيبه على الأصل الذى أومأنا إليه نمطًا

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤١.

(٢) المصدر السابق ص، ٢٤٣

واحدًا فى القوة والإبداع، ولا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته مادامت تنعطف على هذا الكلام الإلهى، ومادام فى موضعه من النظم والسياق، فإذا أنت حرفت ألفاظه من مواضعها أو أخرجتها من أماكنها وأزلتها عن روابطها، حصلت معك ألفاظ كغيرها بما يدور فى الألسنة ويجرى فى الاستعمال، ورأيتها - وهى فى الحالين لغة واحدة كأنما خرجت من لغة إلى لغة، لبُعد ما كانت فيه مما صارت إليه، بيد أنك إذا تعرفت ألفاظ اللغة على هذا الوجه فى كلام عربى غير القرآن رأيت لكل لفظة روحًا فى تركيبها من الكلام.

يقول الرافعى:

«وهذه الروح التى أومأنا إليها، (روح التركيب)، لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن، وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر فى التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم: فمن ههنا تعلق بعضه على بعض، وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة، هى صفة إعجازه فى جملة التركيب كما عرفت، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحِكَم والتعليم وضرب الأمثال، إلى نحوها مما يدور عليه»[١].

---

(١) بغية الوعاة. ص ٢٤٥.

إن الرافعى يتعامل مع ألفاظ القرآن وكلماته، وجمله وآياته، وسوره وجماعه بمفهوم الدارس الواعى الذى فنيت ذاته فى كلام الله ليله ونهاره متأملاً مستلهمًا، طويل النفس فى غوصه، بعيد الأعماق فهمًا، منفتح القلب إيمانًا، فكان صدور ما صدر عنه إنما هو عطاء نفس راضية، وروحية ملائكته، وذات قرآنية ومهجة شفافة كاملة الفهم مطلقة الإيمان.

ولعل من أمتع ما كتبه الرافعى فى فصل «المناسبة» ذلك الاستفهام الإيمانى العميق الذى يسوقه على النحو التالى:

«ثم ما أنت قائل فى كلام جاء من الإبداع فى التأليف ومن وجوه التفنن فى تلوين المعانى بحيث نفى العرب جميعًا عن لغتهم وهى فى أرقى ما اتفق لهم من الصور اللغوية، واستبد بها دونهم واستغرق كل ما جاء به من محاسن البيان حتى لم يدع لمن يقابل بينه وبين كلامهم إلا حكمًا واحدًا تنتهى إليه المقالة من أى جهاتها سلك، وهو أن العرب أوجدوا اللغة مفردات فانية، وأوجدها القرآن تراكيب خالدة».

ثم ماذا يبلغ القول من صفة هذا التركيب العجيب، وأنت ترى أن أعجب منه مجيئه على هذا الوجه الذى يستنفد كل ما فى العقول البيانية من الفكر، وكل ما فى القوى من أسباب للبحث، كأنما ركب على مقادير العقول والقوى وآلات العلوم وأحوال العصور المغيبة، فتراه يتخير من الألفاظ على درجات ليس معنى العجب فيها أن يقع التخير عليها، ولكن العجب أن تستجيب ألفاظه على هذا الوجه المعجز الذى لا يكون فى اللغة إلا عن قدرة هى عين القدرة التى ألهمت أهلها الوضع والتعبير

وتشقيق الكلام، حتى حصلت لغتهم كاملة فى كل ذلك، أى معنى أعجب من أن تتجاذبك معانى الوضع فى ألفاظ القرآن فترى اللفظ قارًّا فى موضعه لأنه الأليق فى النظم، ثم لأنه ومع ذلك الأوسع فى المعنى، ومع ذلك الأقوى فى الدلالة، ومع ذلك الأحكم فى الإبانة، ومع ذلك الأبدع فى وجوه البلاغة، ومع ذلك الأكثر مناسبة لمفردات الآية مما يتقدمه أو يترادف عليه»[١].

وفى عجالة عن الحديث عن «المناسبة» فى القرآن الكريم نقرر - استمدادًا مما كتبه الرافعى وغيره من أوعية العلم من العلماء - أن أول من أظهر هذا «العلم» وتحدث فيه بنسق واضح وبيان مفصل هو الشيخ أبو بكر النيسابورى المتوفى سنة ٥٥٠هـ كان عالمًا ومعلمًا وأديبًا ويجلس على كرسيه للدرس ومن حوله تلاميذه والمتلقون عنه يأتى بالجديد من الفكر والمستجد من الشرح والتفسير: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكم فى وضع هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يزرى على علماء بغداد لأنهم لا يعلمون هذه المناسبات، وللنيسابورى تصانيف نفيسة تعامل فيها مع الإعجاز مثل إيجاز البيان فى معانى القرآن، ومنها خلق الإنسان، كان النيسابورى يلقب ببيان الحق وله شعر فى الحكمة والتقرب إلى الله[٢]. وقد ألمحنا فى صحفات ماضية إلى اهتمام الإمام فخر الدين الرازى بالمناسبة وكان يطلق عليها الترتيبات والروابط. ويقول إن أكثر لطائف القرآن مودعة فيها.

---

(١) إعجاز القرآن، ص٢٤٧.

(٢) بغية الوعاة. ص ٣٧٨.

على أن أشهر من اهتم بدراسة المناسبة فى القرآن الكريم هو أبو الحسن برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعى (٨٠٩ - ٨٨٥) وهو من كبار علماء عصره وعظماء مؤلفيه وهو صاحب أكبر عمل علمى فى موضوعنا وعنوانه «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» وهو مخطوط فى دار الكتب المصرية، ويقع فى سبعة مجلدات، ويعرف «بمناسبات البقاعى».

وليس معروفًا أن أحدًا من العلماء المعنيين بالعلوم القرآنية قد كتب فى علم «المناسبات» شيئًا قريبًا مما كتبه البقاعى وبذلك بشهادة صاحب «كشف الظنون» الذى يقول فى وصفه: هو كتاب لم يسبقه إليه أحد جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير فيه العقول، وكان جُلُّ مقصوده بيان ارتباط الجمل بعضها ببعض، وقد ألفه فى أربع عشرة سنة.

لقد عاش البقاعى فى القاهرة أكثر سنوات عمره وكانت له صلة بجلال الدين السيوطى فسار إليه فى منزله بجزيرة الروضة واسترضاه استرضاء جميلاً.

وللبقاعى مؤلفات أخرى على جانب كبير من النفاسة والحسن مثل كتاب «عنوان الزمان فى تاريخ الشيوخ والأقران» وجعله من كتب التراجم الدقيقة ولا يزال الكتاب مخطوطًا لم يعن به الناشرون ومن قبلهم المحققون على الرغم من قيمته العلمية الجليلة، وله فى علم الحساب والرياضيات كتاب أسماه «الباحة فى علمى الحساب والمساحة» وله أيضًا ديوان شعر جعل عنوانه «إشعار الواعى بأشعار البقاعى» كما أن له كتابًا فى السيرة النبوية الشريفة كتبه منظومًا وجعل عنوانه «جواهر

البحار فى نظم سيرة المختار» أتمه فى مدينة رشيد التى سكنها فترة من الزمان[1].

ومن العلماء الذين عنوا بعلم «المناسبة» إمام مصر الكبير السيوطى المعاصر للبقاعى، وإن كان قد عاش بعده نحو ربع قرن من الزمان لأن السيوطى توفى عام ٩١١هـ. فقد ألف السيوطى كتابه أسرارالتنزيل الذى جمع مناسبات السور والآيات بين ما تضمنه من آيات. يقول السيوطى فى ذلك: «ثم لخصتُ منه مناسبات السور خاصة وسميته «تناسق الدرر فى تناسب السور». ولعل آخر الأئمة الكبار الذين عنوا فى تفاسيرهم بموضوع تناسب السور والآيات هو الشيخ محمد عبده الذى لم يُقَدّر له أن يقدم تفسيرًا كاملاً للقرآن الكريم، ولو كان قُدِر له ذلك لكان من المسهمين المبرزين فى هذا الميدان القرآنى الجليل.

وإن الأمر الجدير بالعناية والذكر أن مصطفى صادق الرافعى لم يكن بمنأى عن أكثر هذه المعلومات تاريخيًا وعلميًا، فقد اطلع على عدد منها وإن لم يتهيأ له الاطلاع على «مناسبات البقاعى» ولو قد تهيأ له ذلك لكان قد ضمن ذلك كتابه النفيس الذى بين أيدينا نتفيأ ظلاله ونتنسم عبقه ونجتنى ثمره ونسعد بشذى عبيره.

هذه المعالم الشامخة الست من كتاب إعجاز القرآن للرافعى لم يكن لنا معذرة مقبولة فيما لو مررنا عليها مرورًا عابرًا، ذلك أن كل ما كتبه الرافعى جدير بالعناية خليق بالاستيعاب حرى بالاقتناء.

---

(١) المحقق.

ويختم الرافعى كتابه النفيس بخاتمة مضيئة، استهلها بهذه الكلمات الوضيئة:

«وبعد فلابد لنا من التنبيه على أنا فى كل ما أسلفنا من القول فى إعجاز القرآن، أو الإشارة إلى بعض الوجوه المعجزة فيه، إنما أجملنا تفصيلاً، وأتينا بما أتينا به تحصيلاً، فاكتفينا من ذلك بما يرشد من أمثاله، واقتصرنا فى كل وجه على أصل المعنى دون مثاله، فإن القرآن الكريم ليس كتابًا يتخير منه ما يستجاد بعضه، ويصفح عن بعضه، إنما هو طريق مستبصر، من أين أخذت منه نفذت، ومن حيث تأديت به تهديت وهو فى كل معنى مما قدمنا، سننه القائم، ومثاله الدائم».

البلاغة النبوية

إن أكثر العلماء الذين كتبوا عن موضوع إعجاز القرآن لم يفتهم أن يضمنوا كتبهم فصلاً أو أكثر عن بلاغة الرسول ﷺ، ولذا فقد رسم الرافعى على نسقهم وتابع منهجهم فى هذا الموضوع فكتب بحثًا فيمًا جعل عنوانه «البلاغة النبوية».

والحق أن الفصل الذى كتبه الرافعى فى هذه المناسبة يعد واحدًا من المباحث النفيسة التى خلفها العلماء فى هذا الموضوع بحيث لو أمده الرافعى بمزيد من التفاصيل لكان واحدًا من الكتب الجيدة التى كتبت فى بلاغة الرسول ﷺ.

إن الرافعى فى مبحثه هذا الذى ألحقه بكتاب «إعجاز القرآن» عمد إلى النهج نفسه الذى اتبعه فى كتابه المذكور، فجعله مجموعة من المباحث والمقالات المتتابعة فهو يستفتح بحثه بفصل قصير يتحدث فيه عن «بيان الرسول» يقول فى بعضه:

«ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهى وإن لم تكن من الوحى، ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها دليل، فقد كانت هى من دليله، محكمة الفصول، حتى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هى فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ.

إنه استهلال ينبئ بأن المؤلف عاش المنطق المحمدى قلبًا وعاطفة وعقلاً وإيمانًا إلى درجة العيش له والفناء فيه، ثم يجعل بداية موضوعه «فصاحته» ﷺ.

والحديث عن فصاحته ﷺ من العمق والقيمة بحيث لا تتسع له الصفحات الطويلة، بل المجلدات الكثيرة، ولكن الرافعى لا تُعجزه القدرة عن أن يقدم الأمر الجليل فى العدد القليل من الصفحات، وهذا الصنيع هو الذى فعله الرافعى فى هذا المبحث الذى يقول فى بعضه. «أما فصاحته ﷺ فهى من السمت الذى لا يؤخذ على حقه، ولا يتعلق بأسبابه متعلق، فإن العرب وإن هذبوا الكلام وحذقوه، وبالغوا فى أحكامه وتجويده، ألا أن ذلك كان منهم عن نظر متقدم، وروية مقصودة، وكان عن تكلف يستعان له بأسباب الإجادة التى تسمو إليها الفطرة اللغوية فيهم، فيشبه أن يكون القول مصنوعًا مقررًا، على أنهم مع ذلك لا يسلمون من عيوب الاستكراه والزلل والاضطراب.

والحق أن كلام الرسول كان أسمى كلام بعد كلام الله، وأن بيانه كان أرقى بيان بعد القرآن الكريم، وقد سجل ﷺ هذه الحقيقة ووثقها بقوله: «أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر». وفى رواية: «ورببيت فى بنى سعد بن بكر» ومن المعلوم أن قريشًا وبنى سعد هما أفصح قبائل العرب.

وفى هذا المقام يقول الرافعى عن فصاحته ﷺ: كأنما تكاشفه اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطابًا، وأسدهم لفظًا، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لأبينهم من العرب.

ويقول الرافعى فى موضع آخر من هذا الفصل: كان رسول الله ﷺ أفصح العرب، على أنه لا يتكلف القول، ولا يقصد إلى تزيينه، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده، ثم لا يعرض له فى ذلك سقط ولا استكراه. ثم يستشهد الرافعى بوصف الجاحظ لكلام الرسول ﷺ حيث يقول: هو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنعة، نزه عن التكلف. ويأتى الرافعى بكلام الجاحظ كاملاً.

ويفرد الرافعى مساحة لصفته ﷺ، ومن المعروف كثيرًا من الصحابة قد أثر عنهم وصفهم لرسول الله، غير أن الرافعى اختار وصف هند بن أبى هالة - وهو ابن أم المؤمنين خديجة الكبرى - وكان وصافًا، وكان أيضًا كثير المعايشة لرسول الله، قريبًا إلى قلبه ﷺ وهو والأمر كذلك خال الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم.

يقول الحسن بن على رضى الله عنهما سألت هند بن أبى هالة عن حلية رسول الله ﷺ فقال: كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب (البائن الطول) عظيم الهامة، رجل الشعر.. إلى آخر هذا الوصف الذى عرف بأنه من أدق ما وصف به رسول الله ﷺ، ولم يخل هذا الوصف من الحديث عن بلاغة رسول رسول الله وفصاحته وانفراده بأبلغ بيان.

وكان اهتمام الرافعى ببيان رسول الله ﷺ وفصاحته موضوعًا لأكثر مباحث هذا القسم من الكتاب الذى يحمل عنوان (البلاغة النبوية) ذلك أن الرافعى عاد فأفرد مبحثين عنوان أحدهما: «أحكام منطقة ﷺ» ويحمل الآخر عنوان: «اجتماع كلامه وقلته ﷺ». يقول فى الأول، بل فى بعض منه: فكانت محاسن هذا الباب فى النبى ﷺ طبيعية كما رأيت، لأنها عن أسباب طبيعية، وقد وصفوه مع ذلك بحسن الصوت - وقد استشهد الرافعى فى هذا المقام بحديث قتادة - وهو حليتها وتمامها، فإن هذه اللغة خاصة تجمل بذلك ما لا تجمل به سائر اللغات، لما فيها من معانى الأوضاع الموسيقية فى خفة الوزن، وصحة الاعتدال، وتمام التساوى وحسن الملاءمة فلا جرم كان منطقه ﷺ على أتم ما يتفق فى طبيعة اللغة، ويتهيأ لها أحكام الضبط وإتقان الأداة: لفظ مشبع، ولسان بليل، وتجويد مفخم، ومنطق عذب، وفصاحة متأدية، ونظم متساوق، وطبع يجمع ذلك كله، مع تثبيت وتحفظ وتبين، وترسل وترتيل.

ويقول فى الثانى (اجتماع كلامه وقلته): هذا إلى أن اجتماع الكلام وقلة ألفاظه، مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه فى غير تعقيد ولا تكلف، مع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وأن يكون ذلك عادة وخلقًا.. لم يعرف فى هذه اللغة لغيره ﷺ. ثم يقول الرافعى معلقًا: وهذا الذى كان يعجب له أصحابه، ويرونه طبقة فى هذا اللسان، وطرازًا لا يحسنه إنسان، حتى إن أبا بكر رضى الله عنه قال له مرة: لقد طفت فى العرب وسمعت فصاحتهم فما سمعت أفصح منك. فمن أدبك؟» قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى».

ولأن مشركى العرب قد اتهموه ﷺ بأنه شاعر، وجاء نفى الشعر عنه فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس:٦٩). فقد عقد الرافعى مبحثًا عن «نفى الشعر عنه ﷺ» وذكر أنه على الرغم من كونه أفصح العرب إجماعًا، لم ينشد بيتًا تامًا على وزنه، وضرب لذلك عدة أمثلة، منها إنشاده الشطر الواحد من البيت، فإن أنشده كاملاً لا ينشده صحيح الوزن مثلما فعل مع بيت لبيد: «ألا كل شىء ما خلا الله باطل». ومع بيت طرفة بن العبد: «ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً، ويأتيك من لم تزود بالأخبار». مع أن صحة الشطر الثانى - كما هو معروف - ويأتيك بالأخبار من لم تزود.

على أن ذلك لا يعنى أن الرسول كان يحرم قول الشعر، فإن ذلك غير صحيح، وإنما كان يحرم الشعر الذى يمجد الانحراف وينال من القيم ومكارم الأخلاق، فقد كان للرسول ﷺ شعراؤه الذين ينافحون عنه ويردون كيد المشركين، يأتى فى مقدمة شعراء الرسول حسان بن ثابت

وعبدالله بن رواحة وكب بن مالك وغيرهم كثيرون، بل إنه ﷺ كان يستنشد الخنساء ويطرب لشعرها ويقول لها: إيه يا خناس.

ولما كان لرسول الله ﷺ تأثير واضح فى اللغة العربية، وحسن بلاغة وقوة دلالة، فقد أفرد الرافعى مبحثًا لتأثير الرسول ﷺ فى اللغة، وضرب بعض الأمثلة لهذا التأثير المتمثل فى بعض الحِكَم التى صارت أسئلة جارية على ألسنة العرب مثل قوله: «مات حتف أنفه»، ومثل قوله: «الآن حمى الوطيس».

ومن تلك الآثار الخالدة كتبه التى كان يبعث بها إلى زعماء قبائل العرب يخاطبهم فيها بلحونهم، وقد جاء الرافعى فى مبحثه هذا بنماذج عديدة ومتباينة توضح تأثير بلاغة الرسول ﷺ فى اللغة العربية.

وينشئ المؤلف فصلاً جليل الفائدة نبيل المقصد جعل عنوانه «نسق البلاغة النبوية» يقول فى بعضه: إذا نظر فيما صح نقله من كلام النبى ﷺ على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية رأيته فى الأولى - أى اللغوية - مسدد اللفظ، محكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء فى تأليف الكلمات. ورأيته فى الثانية - أىَ البيانية - حسن العرض، بين الجمل، واضح التفضيل، طاهر الحدود، جيد الوصف، متمكن المعنى. واسع الحيلة فى تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إطالة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطرابًا ولا خطلاً.

يقول الرافعى: أين من ذلك الفصحاء والبلغاء وأنى لهم؟ وما قط عرفناه بليغًا سملت له جهات الصنعة فى كلامه - من اللغة والبيان والحكمة على أتمها. ثم يقرر الرافعى فى إشارة إلى إعجاز لغة القرآن

وإلى أسلوب الرسول ﷺ أنه ما أثمرت بلاغة عربية ما أثمرته السماء فى بلاغة القرآن ثم بلاغة الأرض فى كلامه ﷺ، والناس بعد ذلك أجمعون حيث طاروا أو وقعوا.

وينهى الرافعى مبحثه فى «البلاغة النبوية» بحديث عن القصد والإيجاز والاقتصار على ما هو من طبيعة المعنى فى ألفاظه، ومن طبيعة الألفاظ فى معانيها. وحديث آخر عن «الاستيفاء» الذى يخرج به الكلام – على حذف فضوله وأحكامه ووجازته – مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج – أى نقصان – ولا إطالة ولا اضطراب، حتى كأن تلك الألفاظ القليلة إنما ركبت تركيبًا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه وطبيعته فى النفس.

ثم لا يلبث الرافعى – إعجابًا منه بالأمثال النبوية – أن يجعل منها نهجًا لتأكيد البلاغة النبوية مثلما فعل فى البحثين السابقين، وقد أحسن الرافعى فى نهجه إحسانًا كبيرًا، وحبذا لو كان أفرد مبحثًا مستقلاً للأمثال النبوية، مما كان يوفر عليه غير قليل من التكرار فيما سلف من مباحث.

غير أن القارئ ذا البصيرة ذا البصيرة النافذة الناقدة – حيال هذا الجهد الكبير – لا مفر أمامه من أن يعترف بأن هذا الفصل الذى خص به المؤلف البلاغة النبوية يعد من أفضل ما كتب فى هذا الشأن فى نطاق المساحة المتاحة له، وأن يقر بأن هذا العمل العلمى الإسلامى الكبير «إعجاز القرآن» الذى اضطلع بإنجازه الكاتب المسلم الكبير، واحد من المؤلفات الماهرة، والآثار الباهرة فى حقل التأليف فى الدراسات

القرآنية المعاصرة، ويتكافأ - بموازين العدالة - مع أبحاث علمائنا السابقين المخلصين، رحمهم الله، ورحم مصطفى صادق الرافعى رأس الكُتّاب المسلمين المخلصين الأمناء في القرن الرابع عشر الهجرى.

والحمد لله رب العالمين، وعليه - جل ثناؤه - قصد السبيل.

محتويات الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٢٠١ / ٢٠٠٤

I.S.B.N. 977 - 01 - 9197 - 3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع



مكتبة الأسرة

هذا العام نحتفل ببلوغ مكتبة الأسرة عامها العاشر وقد أضاءت بنور المعرفة جنبات البيت المصرى باكثر من ٨٠مليون نسخة كتاب من امهات الكتب فى فروع المعرفة الانسانية المختلفة.. ومنذ عشرة سنوات تفتحت عيون اطفال كانوا فى العاشرة من عمرهم على إصدارات مكتبة الأسرة وكانت زادهم المعرفى عبر السنو العشره الماضية لتلهب فى تلك العقول الشابة الآن نهم المعرفة من خلال القراءة وكنا ندرك منذ البداية المعرفة هى سلاحنا الأمضى لتأخذ مصر مكانتها فى ذلك العالم الجديد الذى تتفوق فيه المعـ والمال لأنها تحمل الانسان إلى آفاق لا حدود لها فى عالم متغير شعاره ثورة المعلومات وسـ كل وسائل الاتصال ولم يكن منطقيا أن نقف مكتوفى الأيدى. فكانت مكتبة الأسرة بكل اساسية نستقبل بها ذلك العصر الجديد. عصر المعرفة وإننا لنتطلع فى الاعوام القادمة ا الأسرة ثمارها اليانعة وتساهم فى التغير المعرفى والتكنولوجى لمعطيات العصر لتفسح ا يشارك بدور فاعل فى تقدم البشرية الجديد لتكون امتدادا حضاريا معاصرا للحضارة الـ التى كانت أهم وأقدم الحضارات الانسانية عبر التاريخ.

سوزان مبارك



السعر ١٥٠ قرشاً